تنوير قول الرماني في « باب الإيجاز » من رسالة النكت"

يقول أبو الحسن الرُّمّانِيّ: « الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى

وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة إيجاز. ([1])

---

١) هذه العبارةُ :«تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى.....إلخ » ليستْ تعريفًا مَنطِقيًا جامعًا مانعًا.

قوله " تقليل الكلام" قد يدخُلُ فيه "الاختصارُ" لأنَّه تقليلُ كلامٍ سَبَق إنشاؤه بسيطا. فكان علَى الرُّمَّانيّ أن يقولَ : الإيجازُ بِناء الكلام قليلًا لفظُه، ليفهمَ أن هنالِك فرقًا بيْن أن تعمَدَ إلى كلامٍ سبق إنشاؤه، فتحذفَ منه ما يُمكِنُ فهمُه مِن فحوَى الكلامِ ؛ لقيامِ قرينةٍ مقاليّةٍ أو حاليةٍ، وهو ما يعرفُ بـ"الاختصار" و"التّخليص"

وإذا كان قوله "من غير إخلالٍ بالمعنَى " مخرِجًا "التّقصير" فإنّه لا يُخرج" المُساواة" عند من يقول بها ومنهم الرّمّانيُّ .

ولو أنّه قال " تقليلُ الكلام تكثيرًا للمعنى" ، لكان في قوله :" تكثيرًا للمعنَى " مانعًا للاختصار والتَّخليص، وللمساواة مَعًا ، فكلٌّ من ذلك لا يجبُ أن يترتبُ على قلة الكلام فيه تكثيرُ المعنَى في فؤاد السَّامع بحسن استبصَارِه.

أوْ يقول : " الإيجازُ بناءُ الكلامِ قليلَ الألفاظِ تكثيرًا للمعنى" وهذا أجودُ مِن أنَّه يفهم منُه أنّ قلّة ألفاظِه تحقّقت من أول انشائه، فلا يدخلُ الاختصار،والتخليص ويفهم منه أنَّ لهذا التَّقليلِ غايةً ، هي تكثيرُ المعنى، فليس كلُّ تقليلٍ للألفاظ ، وإن لم يخلّ بأصلِ المعنى إيجازًا .

فللإيجاز – وهو مصطلح بلاغي لا لغوي ركنان:

(الأول) : بناءُ القول على قلة الألفاظ .

(والآخرُ) :أن يكون ذلك تكثيرًا للمعنَى في فؤاد السَّامع .

فالأولُ ركنٌ يرجعُ إلى بنيتِه وصنعته ابتداءً.

والآخر ركنٌ يرجعُ إلى ما يراد منْ تلك الصّنعةِ.

وسيفهم ضمنًا أنّه لا يكونُ مع هذا التّقليل إخلالٌ، لأنهما :"التّكثير" و"الإخلال" لا يجتمعان ، ويخرج بالضَّرورة أيضًا المساواة، لأنّها لا تكثيرَ فيها. فما جاء به الرّمّانيّ لا يصلحُ تعريفًا للإيجاز، والاستهلالُ به غيرُ حكيم..

وقوله:« وإذا كان المعنى يمكِنُ أن يعبَّر عنه بألفاظٍ كثيرةٍ ويمكنُ أن يعبَّر عنه بألفاظٍ قليلةٍ ، فالألفاظُ القليلةُ إيجازٌ» يُومئُ إلى مرحلة التّصويرِ لِمَا هو مكنوزٌ في فؤادِ المُبين ،فله أن يصوّره بألفاظٍ كثيرةٍ، وأن يصورّه بألفاظٍ قليلةٍ ، فهُو إزاء اختيارين، والمقامُ هو الّذِي يحمله إلى أن يصطَفِي أحدَهما ، فإن حمله المقامُ إلى أنْ يصطفَى أن تكونَ الألفاظ المصوّرة معناه

قليلةً، فذلك "إيجازٌ" وإن حمله المقامُ إلى أن تكونَ الألفاظُ المصوّرة معناه كثيرة، فذلك"إطنابٌ" وكلٌّ في سياقِه بليغٌ . فالمطابقةُ والنّزولُ على اقتضاء الحالِ هو القاضِي الحاكم بالبلاغة ، أوْ بالعِيِّ .

وهذا يعنِي أنَّ ما كانت ألفاظُه قليلةً هو إيجازٌ بالنّسبةِ لما كانت ألفاظهُ كثيرةً، ويفهم من هذا أن الحكم بمرتبِطٌ بأن يكونَ أصلُ المعنَى واحدًا ، فإذا ما اختلف ، فكان لكلٍّ أصلٌ ، فلا يصحُّ القول بأن هذا إيجازٌ ، وهذا إطنابٌ . فليس لك أن تقول إنّ سورة « قُلْ هُو الله أحدٌ » إيجازٌ، وسورة «والشَّمْسِ وَضُحاها » إطنابٌ ، ولكن لك أن تقول : سورة "الإخلاص" إيجاز" و«آيةُ الكرسيّ» إطنابٌ ، ذلك أنّهما اتفقتا في أصل المعنى. لكن " آية الكرسيّ " بالنّسبة لما يستحقُّه ما يتكلم فيه إيجازٌ ؛ لأنَّ ما يُتكلم فيه وهو وحدانية الله تعالى وجلالُ الألوهية كلُّ ما يقالُ فيه ، وإن كان حمل بعير هو بالنسبة لما يستحقّه إيجازٌ.

فإذا قلت : إنّ هذا إيجازٌ ، فعليك أن تقولَ هو إيجازٌ بالنّسبة لماذا : أهُو بالنّسبةِ لِما شاركه فِي أصلِ المَعنى أمْ لِما يقتضِيه ما يُتكلّمُ فيه ؟

فإذا قلت : إنّ هذا إيجازٌ بالنّسبة لما كان يُمكنُ أن يُقال ، فأنت هنا عليْك أن تبيّن : أهذا الّذي كان يُمكن أن يقال بسيطًا أيقتضيه المقام ؟ فإن قلتَ : نعم، كان الإيجازُ هنا عِيًّا ، وإن قلت لا يقتضيه المقامُ ، فقولك يمكن أن يقال ليس له محلٌ ، لأنك تحرّرت من سلطان المقام والمغزى، والبلاغيُّ كالبليغ تمامًا لا يمكنُ أيٌّ منهما أن يتحرَّر من سلطان السّياقِ والمغزَى، فهُو بالقنوت لهما كان هذا بليغًا ، وكان هذا بلاغيًا.

ومن البيّن أنَّ الرّمانيّ قد اطّلع على ما ذهب إليه "الجاحظ" من قوله:« والإيجازُ ليس يعنى به قلّة عدَد الحروف واللّفظ، وقد يكون البابَ من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز» (الحيوان. تحقيق : هارون.ج:١ص٩١) ذلك أن فرقًا بيْن ما يتحّثُ فيه الرمانيّ ،وما يتحّث فيه الجاحظ، الجاحظ يتحدث في شأن البيان في الموضوع،ألا تراه يقول:« وقد يكون الباب من الكلام » أي قد يقتضي الموضوع أن تقول فيه ما يملأ بطن "طومار" [والطَّامُورُ والطُّومارُ: الصَّحيفَةُ، جمعه : طَواميرُ أيْ صُحف] ومع ذلك يكون كلامك هذا وجيزًا بالنسبة لما يستحقه الموضوع،والمتكلم فيه، فالتكلم في معالم جلال الألوهية في الآيات الكونية، فأنت إن بقيت سنين تقول، فإنك ماقدرت الموضوع حق قدره، وكلُّ الذي قلت لا يفِيه حقه،ولكن راعيت حالك ، لا حال الموضوع، فهو مطابقٌ لحالك لا لِما يقتضيه حال الموضوع المتكلم فيه

أما الرّمّانِيّ فهو يتكلم في بناء " العبارة" عن المعنَى ،لا عن "الموضوع"

والإيجازُ على وجهين: حذف ، وقصر ([2])

---

[2]) عمد الرّماني إلى تفسِيم المجازِ من وجوهٍ عدّة منها من جهة بنيتِه ونظمِه،وهوالأعلم،وقد بدأ به، فجعله وجهيْن كما قال والإعراب بالوجهين يشِي بانّهما متلازمان

الوجه الأول: إيجازٌ حقَّقه حذفُ بعض ما كان يُمكن أن يصرح به ،فلا ينبو أصل المعنى عنْه ، وإنْ نبا عنه اقتضاءُ المقام ومطابقته.

والوجه الآخر: إيجازٌ حقَّقه اختيارُ الكلم ونظمه دون أن يكونَ هنالك حذفٌ لِما يُمكِنُ أن يكونَ.

الأول: إيجازُ الحذفِ إذا قدّر المحذوف ،فإنّ نظم الكلام لا يفسُد، ولكن يترتّب عليه تغييرٌ في الموقِع الإعرابي لبعض الكلم قبل تقدير المحذوف ، كالذي تراه في قول الله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ »(يوسف: ٨٢) تقدير المحذوف: وَاسْأَلِ أهلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَأصحابَ الْعِيرِ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا .

تغيَّر إعرابُ «القرية» بعد التَّقدير من "النّصب"مفعولًا به إلَى "الجرّ" مضافًا إليه وكذلك «العِير» وهذا التقديرُ بسطَ في العبارة، وضيَّق المعنى، ذلِك أنّ المعنَى متَّسِعٌ مَعَ الحذف ، على ما لا يخفى عليْك، وسعيُهم إلى تمكين تصديقهم أليقُ به الحذفُ، فكان في تقدير المحذوف إخلالٌ بتحقيق ما يقتضِيه المقام ممّا يجعلُ تقديرَ المحذوف فِي الموضِعيْن عِيٌّ، فتجدك أنطقَ ما تكون إذا لمْ تنْطق بالمحذوف.

وقد يفهم من مصطلح «الحذف»أنَّ المحذوف كان أولًا ثم أتى عليْه "الحذف" ، فيكون الكلام قد مرّ بمرحلتين: البسط ثم الحذف ، هذا يمكن الأخذ به في «الاختصار» و«التخليص» أما الحذف فلا، هو حذف باعتبار أنّ المحذوف مذكورٌ بالقوة ، لا بالفعل أي أنه كان يُمكنُ في مرحلة التصور أن يقال. كان بملك إخوة يوسف أن يقولوا: واسال أهل القرية التي كنا فيها، ولكن هذا يبطل ما هو إليه قاصدون. المبالغة في أنهم جد صادقين،وأن صدقهم قد علمه كلّ شيْءٍ في القريةِ ، فَسَلْ مَن شئت فيها يخبرك إنا لصادقون،ولو قال" أهل القرية" لما تحقَّق له ذلك الزعمُ .

وعلى ذلك يكون المحذوفُ في" إيجاز الحذف" مذكورًا قبلُ بالقوّة [أي بالإمكان]، بيْنا في"الاختصار" هو مذكور أولًا بالفعل ثم وقع عليْه الحذف .

والآخر : إيجاز القصر، فهو بناءُ الكلام على قلّة الكلم من غير أن يكونَ إمكانٌ لتقدير شيْءٍ لم يكن، فهو معتمدٌ فيه على حسن اختيار الكلم، ثم على اختيار وجوه من التَّركيب تمنحُه قدرة على أن يُحدثَ في المعنَى اتساعًا في فؤاد المُصغِي وتكاثرًا بحسن استبصاره وتدبره.

فإيجاز القِصر محقّقٌ لِتمام دَلالةِ الكلامِ علَى المراد منْه مَع قِلّة ألفاظِه وأركان ذلك ثلاثةٌ :

حسن اختيارالمفردات

[تبين مفهوم إيجاز الحذف وإيجاز القصر]
فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام
والقِصَرُ بِنْيَةُ الكلامِ علَى تقليلِ اللّفظِ وتكثيرِ المَعنَى مِن غيرِ حذفٍ .(٣)

وحسن اختيار نمط نظمها
وحسن اختيار السياقِ الذي تجرى فيه العبارة.
♦♦♦♦♦♦♦♦
٣) يُبِينُ الرُّمّانيّ عَمَّا بيْن الإيجازيْن من مفارقة في" النّظم" ولعلّه أوّلُ مَن صرّح بذلك، ولعلّه أوَّل من صرَّح بمصطلح" إيجاز القصر" فحُمِل عنه وكُتب له السّيرورة من بعد في أسفارِ البلاغيين والنقاد.
يُبين عن" الحذف"بأنّه «إسقاط كلمةٍ للاجتزاء عنها بدَلالة غَيْرِها من الحالِ أو فَحوَى الكلام» لا يُفهم مِن قولِه "إسقاط" أنّه يقصد أن تكونَ الكلمةُ حاضرةً أوَّلًا ، ثُمّ نقوم بإسقاطِها ؛ لأنّ هذا كما قُلتُ قبلُ إنّما هو" الاختصارُ"و"التَّخليص" وإيجازُ الحَذفِ ليْس كذلك، وهو ترْك ذكر ما يمكن ذكره في مرحلة التّصور دون أن يكون في ذكره إخلالٌ بأصل المعنى، فالإسقاط هنا في مرحلة التصور، لا في التصويرأي هو أسقاط لما هو حاضرٌ بالقوّة لا بالفعل، ويكونُ لهذا التّرك قرينةٌ دالٌ عليْه ، وأَعْرَبَ عنها الرُّمّانِيّ بقولِه" للاجتزاء عنها بدَلالةِ غيرِها مِن الحالِ أوْ فحوى الكلام " فهذا قرينةٌ دالة علَى ما كان يمكنُ ذكره ، ولم يذكر.
ولهذا التّرك غايةٌ ومغزى، وهو تكثيرُ المعنَى فِي نفسِ المستمع بحُسن اسْتبصاره وتدبره.
ويتبين لك ذلك بأن تعمَد إلى المناظرة بيْن ما عليْه النظمُ المتحقّق فيه إيجاز الحذف بما يمكن تقديره، ثُمّ ترَى حال المعنى مَع كلّ ،وأيّها أليق بالمقصِد والمغزَى.، فليْس كلُّ حذفٍ إيجازًا بلاغِيًّا ،وليس كلُّ حذفٍ هُو المحمودُ . فربّ حذفٍ هو العِيُّ ، كما أنَّه ربّ ذكرٍ هو العيّ، فالأعمالُ بمقتضياتِها ومغزاها. الأ تَرَى أنَّ الجَمع والقصر فِي الصّلاة للمسافر في غيرِ معصيةٍ هو القنوت.والزّلْفَى؟
وقوله:« القِصَر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف » قولٌ محكمٌ فارق بينه وبيْن" إيجاز الحذف ، فالنظمُ هنا هو العمدة في تحقيق ذلك مع اختيارِ اللفاظ واختيار سياق القول.
وإيجازُ القِصر هو عيارُ القدرة الإبانيةِ من قبلِ المتكلّم ، والقدرة الفهمية من قبلِ المتلقّي ، وهذا تراه حاضرًا نضيرًا في بيان الوحي وسَيّدنا رَسُول اللهِ ﷺ قد أنبأ بأن ممّا فضل به أنّه "أعطي جوامع الكلم"

•••••

فمن الحذف {واسئل القرية}(يوسف:٨٢)[٤]

روَى مسلم في كتاب" المساجد" من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِىَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِىَ النَّبِيُّونَ ».
وهذا يلفتك إلى قول الله ﷻ في سورة" والضّحى":(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) فهو ﷺ يحدّث هابنعمة الله تعالى عليه(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)(والضّحى:١١)
فقوله" أعطت" كلمة هادية إلى أن ما أعطي أمرٌ لا طاقة له ،وهو من هو أن يحققه لنفسِه بنفسِه أو يحققه له غيرُه معلمًا، إنما هو عطاءٌ ربانيّ اختصّه به،وكأنّه ﷺ ينبؤ عن وجهٍ من وجوه إعجاز بيانِه، فالذين لا يقولون بأن بيانه ﷺ عقيدة وشريعة وإحسانًا معجز، كيف لهمأن يتلقوا قوله:" أعطيتُ" لو كان بيانه يمكن لغيره أن يأتي بمثلِه ما كان له ﷺ أن يبنِئ بأنّهُ ه أعطي" ،ولوجد في خصومه، إن فينا من بيانه جوامع الكلم ، فليس ثَمّ قتضٍ لأن تفخر بذلك علَيْنا. فلما لم يقم لذلك أحدٌ من خصُومه دل لسانُ الحال عن أنّ ذلك من خواصّ بيانه المحققة لإعجازِه،وإن لم يتحد بذلك،ولم يتخذه آيةعلى صدقِه في نبوتِه ﷺ
.وأنت بملكِك ،بلْ عليْك فريضةً أن تَجعلَ قولَه"أُوتيتَ جوامِع الكلِم" مِن إيجازِ القصر الذي إنْ أحسنت تبصره متدبرًا اتساع معانيه عليك وتكاثر في فؤادك ، فأترعَه ،وبقيت عليك بقية من المعنى لا طاقة لك بتحصيلها ، تحفزك على أن تعيد التبصر حينًا بعد حين، وفي كلّ مرَّة تكون قد اضفتَ إلى ملكاتك وأدواتك ومهاراتك وخبراتك ما لم يكن لك في التي قبلها، لأنك إن أقبلت إليه مرة أخرى بالأدواتِ والملكاتِ والمهارات والخبرات نفسِها فإنك لا تجتني غير الذي اجنيت قبلُ . ذلك أصلٌ مكينٌ من أصول إعادة التَّبصُّر في ما سبَق تبصُّره في البيان العالي : بيان الإبداعِ البشريّ شعرًا ونثرًا أدبيًّا وعلميًا، فكيف بببان الوحي: البيان المبلس والمعجز: القرآن والسنة النبوية؟

٤) بيّنتُ لك قبلُ ما في قولِه تعالى حكاية عن مقالِ أخوةِ يوسف ﷺ:(وإسْال القَرْية)
وممّا هو عادةُ الأعيان من أهل العلم بلسان العربيةِ في أسفارهم، أنَّهم قَلما يذكرون المثال أو الشاهد في سياقه ، وما ذاك رغبة عن السياقِ بل إيمانًا منْهم أنّهم يكتبون لمن هو مقتدرٌ على العرفان به واستحضارِه بمجرد ذكر موطن النظر، إما لحفظهم سياقَ القولِ ، فالشأن في زمانهمأنه لا يعمد إلى مدارسة القضايا والمسائل البلاغية في الأسفار إلا من بعد أن يتضلع طالبُ العلم بنصوص الإبداع البشري شعرًا ونثرًا أدبيا، ومن قبله بيان الوحي قُرآنا وسنة، ذلك كان شأنهم ،وهو على عكسه شأننا طلاب العلم في زماننا .وإما أن استحضاره غير عسير.

ومنه {ولكن البر من اتقى} (البقرة:١٨٩) (٥)

وأمرٌ أخر هو أن عدم ذكر السياق يحمل إلى أن يرجع القارئ إلى مصدر ذلك المستشهدِ به أو الممثل، فيكون له أن يمدّ بصره لا في السياقِ القريب : السباق واللحاق ، بل السياق المديد الذي قد يكون معقدًا أو نصًا كاملا ، وهذا يمكنه من رؤية ما بين موطن الشاهد وسياقِه من تآخٍ يعين إدراكه على حسن فقه الشاهد أو المثالِ، وهذا منهاجٌ تربويّ قويمٌ ،وليس تقصيرًا في الوفاء بحق القول.

وممَّا يحسُن أن تلتفت إليْه أنَّ هذا الّذي نتلوه في كتاب الله ﷻ حكاية عن قومٍ لا يتكلمون العربيةَ إنما هو إعرابٌ من الله ﷻ عمّا هو مكنونٌ في صدورهم، وهوﷻ عليم بذات الصدور،وعليم بما توسْوس به نفس كلّ إنسانٍ ، فأعرب ﷻ بالعربية عمّا هو قائمٌ في صدورهم ، وإن كانت لغتهم لا تطيقُ الإعراب عن ذلك المكنون في تلك الصّدور، فالعجزُ عن الإبانة عن مكنونِ الصدور بغير العربية آتٍ من قبل اللسانِ نفسه ومن قبلِ المتكلم بِه فما هو مكنوزٌ من دقَائقِ المعاني ولطيفها وطريفها في ما أعرب به القرآن حكايةً عن قوم لا يتكلمون العربية إنّما هو مطابقٌ لما في صدورهم ، وإن لم يكنْ مطابقًا لما في منطوقهم، ولعجزهم ، وعجز لغتهم. .

•••••

٥) قوله تعالى :(وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى) من قولِه تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَاْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة:١٨٩) إنما تقديره عند علماء اللغةِ ونحوها "ولكنّ البرّ برّ من اتقّى" حذف المضاف وأقام المضَاف إليه مقامه، وكأنه هو.

وهذا النظم في القرآن وبيان النبوة كثير ، وفيه من المبالغة ما جعل البار هو البر، وذلك من مخادنته واتخلاطه به اختلاط الدم بجسده، فكأن" البر" غدا روحه، لا تفارقه ، فجميعُ شأنِه وحاله قولًا وفعلًا ظاهرًا وباطنا برٌ، وكأنّ البر لا يفارقه من أنه لا يجد حصنًا ومرتعًا كمثلِه،كما أنّه هو لا يفارق البر من أنه روحه ، فمَن شاء أن يرَى البِرَّ مجسدًا رأْي عيْن فذاك.

وفي هذا هدي إلى أن التّقوَى تجعل من أخلص وأتقن برًا خالصًا ، ولن يتحقق لك من البرّ شيءٌ إلا إذا تحقق فيك تلك التّقوى ومثل هذا قوله تعالى : (ولَكنّ البرّ من آمن.... الآية) (البقرة:١٧٧) وهذا إعرابٌ في الآيتيْن عن أثر ذلك الإيمانِ والتقوى لا تجدُ مثله في غير القرآن وتبيينه السّنة النبويةِ. فالإيمانُ والتقوى هما الصّانعان المواطن الصّالح المصلح ولو فقه ولاة الأمر على اختلاف مستويات ولايتهم ومجالاتها ذلك ، وأيقنوا به، لا تخذوا هذا طريقًا إلى صناعة الإنسان الصّالح المصلح ، وهو لا يكلف مالًا ولا استيرادا واسترفادًا

لنظرياتٍ أعجمية خرقاء بل يوجبُ إخلاصًا وإتقانًا ولكنَّ أكثر الولاة لا يعلمون ، بل لا يرغبون ، فليس من صَالحهم الخاصّ أن تكونَ شعوبُهم صالحةً مُصلِحةً ..

في مثل هذا النَّظم لا يَجمُلُ بك أن تقدّر المحذوف ، ثم تستبصر، فإن ذلك يحاجزك عن أن تتضلَّع من عطاءات الحذف بل يحاجزك عن أن ترتوِي منه . تبصره أولًا، فإن شئت بعد – ويحسن ألّا تشاء في هذه الآيات وأمثالها من بيان الوحي - أن تدرك ما عليه أصل البيان، فقدر المحذوف ، ولكن تقديره، لا يصلح بقاؤه إلا بقدر إدراك أصل النظم ، ثم تلتفِت عنه، لتبْقى في محرابِ ما عليْه النظم في البيان القرآني

ذلك هو - فيما أذهب إليه – الأكرم عطاء في تلقّي بيان الوحي.

وعبد القاهرُ حين يعرض لما جاء في مقال الخنساء - رَضيَ اللهُ عَنْهُا – في شأن نعت الناقة : "فإنما هي إقبالٌ وإدبار"يقول : « وممَّا طريقُ المَجاز فيه الحكْمُ، قولُ الخنساء:

تَرْتَعُ ما رتعَتْ، حَتّى إذا ادَّكَرَتْ * فإنَّما هيَ إقْبالٌ وإِدبارُ

وذاك أنها لم تُرِدْ بالإِقبال والإِدبارِ غيرَ معناهُما، فتكونَ قد تجوَّزت في نفسِ الكلمةِ، وإنما تجوَّزَتْ في أَنْ جعلَتْها لكثرةِ ما تُقبِلُ وتُدْبِرُ، ولِغَلَبة ذاكَ عليها واتصاله منها ، وإنه لم يكن لها حال غيرها، كأنها قد تجسمت من الإقبال»(دلائل الإعجاز. ص٣٠٠ فقرة: ٣٥٨)

ويحسُن بك أن تقرأ البيت في سياقه من الصورة الشعرية المبنية على التشبيه الضمني أو ما يسميه المحدثون "التشبيه الدّائري" تقولُ الخنساءُ في رثاء صخر:

فَمَا عَجُـولٌ لَدَى بَوٍّ تُطِيفُ به * لَهَا حَنِينَـانِ : إعْلانٌ وإسْرَارُ
أَوْدَى بِهِ الدَّهْرُ يَوماً فَهْيَ مُرْزِمَةٌ * قَدْ سَاعَدَتْهَا عَلَى التَّحْنَانِ أَظْآرُ
تَرْتَـعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّـى إِذَا ادَّكَرَتْ * فَإِنَّمَـا هِيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبَـارُ
يَوْماً بِأَوْجَعَ مِنِّـي يَوْمَ فَارَقَنِي * صَخْرٌ ولِلْعَيْشِ إِحْـلاَءٌ وإِمْرَارُ

وما قاله عبدا القاهرأصله فيما ذكره سيبويه في " الكتاب" باب:" هذا بابُ ما ينتصب فيه المصدرُ"ويحسن بك أن تقرأ ما جاء به في هذا (الكتاب.تحقيق هارون.(ط:٣ ، عام ١٤٠٨هـ) ج:١ص: ٣٣٥ -٣٣٧)

ويقُول ابن جني:« إذا قيل: "رجلٌ عدل" فكأنّه وصف بجميع الجنس مبالغة ، كما تقول: "استولى على الفضل وحاز جميع الرياسة والنبل ، ولم يترك لأحد نصيبًا في الكرم والجود ، ونحو ذلك. فوصف بالجنس أجمع، تمكينًا لهذا الموضع وتوكيدًا.

وقد ظهر منهم ما يؤيد هذا المعنى ويشهد به. وذلك نحو قوله: أنشدناه أبو علي:

ألا أصبحت أسماء جاذمة الحبل ● وضنَّت علينا والضنين من البخل

فهذا كقولك: هو مجبول من الكرم، ومطين من الخير، وهي مخلوقة من البخل. وهذا أوفق معنى من أن تحمله على القلب وأنه يريد به: والبخل من الضنين؛ لأن فيه من الإعظام والمبالغة ما ليس في القلب....

ومنه {براءة من الله} (التوبة:١) ([6])

وأقوى التأويلين في قولها: « فإنما هي إقبالٌ وإدبار» أن يكون من هذا، أي: كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار لا على أن يكون من باب حذف المضاف ، أي: ذات إقبال وذات إدبار. ويكفيك من هذا كله قول الله -عز وجل: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} (الأنبياء:٣٧) وذلك لكثرة فعله إياه واعتياده له، وهذا أقوى معنى من أن يكون أراد: خلق العجل من الإنسان؛ لأنَّه أمر قداطَّرد واتَّسع، فحمله على القلب يبعد في الصنعة و"يصغِّر المعنى"»

(الخصائص . تحقيق النجار. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب(ط:٤) ج/٢ص ٣٠٤ - ٣٠٥)

فالأعلى أن تقول في (إنما هي أقبالٌ وإدبار) وما شاكهه إيجاز قصر ، لا إيجاز حذف

وإياك أن تحرم فؤادك من أن يُترع مما جاءنا به شيخنا في تأويل هذه الأبيات في كتابه "خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني" (نشر مكتبة وهبة – القاهرة) فإن فيه ما نحن بافتقارٍ لتبصره ،فبادر.

•••••

٦)في قوله«براءة» وجوه منها أنّه خبر مبتدإ تقديره "تلك براءةٌ" اي عظيمةٌ، ففي الإشارة إلى البراءة تصويرٌ لها بأنَّها حاضرةٌ قائمة في بصيرة كلّ مسلم، أو ينبغي أن تكون حاضرةً في بصيرةِ كلِّ مسْلمِ ، فكما يُشارُ إلى ما هو قائمٌ في الأبصار يُشار إلى ما هو قائمٌ في البصائر، بل إن ما هُو قائمٌ في بصائر الذين آمنوا أقوى حضورًا وظهورًا وديمومية ممَّا هو قائم في أبصار غيرهم . ما هو قائمٌ في أبصار الآخرين قد يزول ويحول، أو يَغيم، بينا ما هو قائمٌ في بصائر الذين آمنوا قائم لا يزول ولا يحول ولا يغيم، فهو الأولى بالإشارة إليه . وعندي أن الإشارة إلى ما هو معنوي قائم في البصائر أولى من الإشارة إلى ما هو قائمٌ في الأبصار .

ولا أذهب بتة إلى أن الإشارة إلى المحسوس حقيقة،والإشارة إلى المعنوي مجاز، كلا . ذلك أنّي لا أذهب إلى الدلالة الحسيّة للكلم حقيقة،والدلالة المعنوية مجازٌ بدعوى أن الإنسان إنما يتعلم ما هو محسوس ثم ينتقل إلى ما هو معنوي. كلا . هذا وإن كان في حال تعليم الأطفال ، فلم يكن قط في حال الإنسان الأول أبينا آدم - عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ – فإن ما هومعنوي كمثل ما هوحسيٌّ عنده سواء بسواء. فهو علمه الأسماء كلها بمدلولاتها الحسية والمعنوية سواءً بسواءِ فقوله تعالى .(تعمى القلوب) كمثل قوله تعالى(تعمى الأبصار) من قوله تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)(الحج:٤٦) فكلاهما على الحقيقة ، وليس ثَمَّ تجوُّز في عمى القلوب، كما ليس ثَمَّ تجوز في عمى الأبصار . لا يفترقان .

الأهم أن قولَه «براءة» خبرٌ لمبتدإ محذوف دالٌ على كمال التّحقق كما دلَّ الّتنوين في «براءة»على كمالِ التعظيم، ذلك أنها براءةٌ من الله ﷻ فما كان منه إنما هو كامل التحقق لاريب فيه، وكامل العظمة، ليس فوقه شيءٌ، ولا طاقة لأحدِ أن يثلمه أو يخدشه.

وفي هذا من توكيد تلك البراءة ما فيه، فلا سبيل لأحدٍ أن يتجاوز ،ولا أن يتوقف. فريضةٌ لازمةٌ لازبةٌ التسليمُ والاستجابةُ حسًا ومعنى. اعتقادًا وسلوكا، فكلّ ما يمكنُ أن يخدش في ذلك هو من الموبقات.

وفي عطف «رسوله» على اسم الجلالة في «براءةٌ من الله ورسولِه» دون إعادة الجار« من» إيماء إلى عظيم ما يخبرُ به سَيّدنا رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ وسّلم عَلَيْه وعَلى آلِه وصَحبه وأنّه من الله ﷻ وليس له من الأمر شيءٌ في هذا، «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » (النّسَاء:٨٠) فمن يفرق بين أمر سَيّدنا رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ وسّلم عَلَيْه وعَلى آلِه وصَحبه ونهيه ـوأمر الله ﷻ ونهيه فقد اعتدى. وفي هذا من إجلال مقام رسول الله ﷺ ما فيه. فالتنوين للتعظيم ،وهو تعظيم مستمد منكونهامن الله ورسوله، فما يكون من الله تعالى إنما هو عظيم جليلٌ لففي هذاالتنوزين إيماءٌ إلىأنّ هذه البراءة لا يجوز بتة لأحد من الناس أن يخرج عنها، فمان من الله تعالى لايكون لأحد ممن آمن به تعالى أن يخرج عنه قيد اتملة، ففي ذلك تحذير بالغ لكل من آمن به تعالى منأن يكون منه ما يُمكنأن يكطون خروج عن هذه البراءة، أيّا كان قدر هذه الخروج أو سببه. وفي هذا قطع العلاقة بين الذين آمنوا بالمشركين قطعًا لا سبيل إلى وصلِه وفي طي المبتدإ توسيعة للمعنى .

ومنه {طاعة وقول معروف}(محمد :٢١)([٧]) ومنه حذف الأجوبة ([٨])

---

٧)تمثيل الرماني بقول الله ﷺ :«طاعة وقول معروف »دالٌ على أنّهُ لا يذهب إلى أنّه خبر لقوله تعالى : «أوْلى » وتقدير الكلام فأولى لهم طاعة وقول معروف، كما هو عند بعضٍ من أهل العلم.

هو بهذا يذهبُ إلى أن قوله ﷺ :« فَأوْلى لَهم » جاء على سبيل التهديد، ثم استَأنف القول مبينًا ما هو الخيرلهم ، وما هو ألأوجب عليهِ أن يكون منهم ، فقال :«طاعَةٌ وقولٌ معروفٌ» أي طاعة الله تعالى وقول المعروف خيرٌ لهم . والتنكير في«طاعة» للتعظيم أي طاعة لله عظيمة وقولٌ معروفٌ خير لهم.

وفي تجريد قوله «طاعةٌ» من النعت إيماء إلى أنّها لا تكون إلا لله تعالى،ولا تكون إلا خالصة. فالتنوين قام مقام ذلك بمعونة السياق ، ففهم أن المعنى طاعة لله خالصة ، وقولٌ معروف خير لهم. .

•••••

٨)يريد إن من هذا الضرب حذف الجواب سواء كان جواب شرطٍ أو جواب قسمٍ على ماترى من حذف جواب القسم في قوله تعالى : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً • وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً • وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً • فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً •فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» (النازعات:١-٥)

أقسم الله تعالى ِخمس ، وجواب القسم محذوف تقديره«لتبعثن» وقد دل عليْه بقوله تعالى «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ • تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » على وجهٍ من التأويل ،واستغني عن التصريح بجواب القسم«لتبعثن» بدلالة ما تعلق به من زمان وقوعه ففي هذا المتعلّق المصرح به تهويلٌ بالغ لحال البعث.

وطيُّ التّصريح بالبعث كأنّه من قوته أظهر من أن يصرح بِه،إيماء إلى أن الأولى من التصريح به التصريح بما يكون فيه "ترجف الرّاجغة تتبعها الرادفة ... "

ومن هذا قول الله تعالى:« وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ» (الأنعام:٩٣) حذف جواب الشرط ، وتَقديره : لرأيت شيئا عظيما مهولًا كفيلًا بأن يردع كلَّ ذي عقلٍ عن أن يكون من الظالمين أنفسهم بالكفران أو العصيان.

وفي هذا من التَّهويل ما لا يتسِعُ له بيان اللسان ، ليتولى ذلك فَهْمُ الجنان . فكمْ مِن معنى تَرَى أنَّ لسانَك لا يتسعُ له ، فتدع الإعرابِ به ، لتفسِح للجنان تصوّره ، ويذهب في ذلك مذاهب كثيرةٍ متنوعة متجدّدة متكاثرة، ففي ترك الذكر وقاية المعنى والفؤاد من الحصر والأسر، فكان مراعاةٌ لحقّ المعنى نفسِه، ولحقّ الفؤاد الرَّشيد المتلقيه ، وكان إنصافًا للمعنى، ومتلقيه. وحذف الأجوابة : جواب القسم وجواب الشرط في بيان الوحي قرآنا وسنة جد كثير نضير.

وهو أبلغ من الذكر (٩)

•••••

٩)قوله«وهوأبلغُ مِن الذِّكر» أيْ أكثر مبالغةً ، وليس أعلى بلاغة، فالمفاضلة هنا إن قلنا إن (أبلغ) غير مجرد منْ معنى المفاضلة مناطها "المبالغة" لا" البلاغة" وفرق بيْنهما بَيِّنٌ لايخفَى عليْك، ذلك أنّه لا يستقيم البتة أن يراد بـ«أبلغ» أنه أعلى بلاغة أي مطابقة لمقتضى الحال، فكلُّ جملةٍ ، بلْ كلُّ كلمة في القرآن هي مطابقة لمقتضى الحال مطابقة كاملة لا مزيدَ عليْها ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يقيموا كلمة مكان كلمة يظن أنها مثلها لفسد المعنى القرآني ،و إن حُسِبَ أنَّ اصل المعنى قائمٌ ، فكلُّ كلمة وإن كانت حرفَ معنى هي معجزة في سياقِها، لايقوم غَيرها فيه مقامها.

ومن قال إن ثَم تفاوتًا بين الآيات أو الجمل في بلاغة القرآن إن أرادوا به التفاوت في المطابقة فإنهم في غفلةأو أو مافوقها، فلا تلق سمعه إليه، وإنْ كان فِي النَّاسِ إمامًا.

أما التفاوت في "المبالغة" فنعم ؛ لأنّ المقام يقتضي أن تكون هنا أعلى منها في مقام آخر، وفي الحالين كلٌ مطابقٌ لمقتضَى الحال ، فقول الرُّمّانِيّ هنا «فهو أبلغ من الذكر » أي الحذف أبلغ مِن الذكر أي أكثر مبالغة لا أكثر بلاغة، ذلِك أنَّ في الحذف تكثيرًا للمعنى بل فيه تكاثرُه بِحسن تبصّره ، ممَّا يقيمُ المتلقي مقامَ العجزِ عنْ الإحاطةِ بالمعاني الّتي تترادفُ من هذا الحذف بحسن الاستبصار ، فليْس القرآن بمعجز أن يؤتى بسورة منْ مثله فحسب بلْ هوالمعجزُ الْمبلسُ عن أنْ يؤتَى على كلِّ معانِي جملةٍ مِن جملِه في سياقِها القريبِ والمديدِ . وتبقَى كلُّ جملةٍ منه في سياقِها ذاتَ معانٍ لم تستنبطْ ، وستقوم الساعة ةفي معانٍ في جمله وآياته وسوره لم تستنبط. وهو معانٍ إحسانية لاتتعلق بالحل والحرمة،وأنما تتعلق بالارتقاء في مقامات القربِ الأقدس المنتهى بمقام الصديقية لغيرِ الأنبياء ،أمّا معاني الحلّ والحرمة ، فذلكمما يستنبطه العلماء في مجموعهم .

كلّ جهدٍ يبذل في باب المعاني الإحسانية الزائدة على معاني الحل والحرمةِ هو من دون ما يقتضيه ويستوجبه،وسيقى العالمُ كلّه كله غير قادرٍ على أن يوفي أيّ جملة من جمله في سياقها حقها في استنباط ما هو مكنوز فيها.

وليس يخفى على من هو دونك في طلب العلم أن مقالة الرُّمّانيّ « وهو أبلغ من الذكر» أن ذلك مقيد باقتضاء المقام الحذف ، وليس الحذف دائما هو البليغ ، وإلا لترتب عليه أن كل ذكر عِيّ ، وذلك لا يقوله عاقلٌ، فاقتضاء المقام أمرٌ مسلّمٌ باشتراطه، لا يحتاج إلى التصريح به، فترك ذكره أدلّ على وجوبه، والتسليم به ، وفي هذا أيضًا دلالة على قدره من أنّه حاضرٌ قائمٌ مهيمِنٌ في كل حالٌ ، فاستغنِى عن التصريح باشتراطِه لقوته.

[بيانه أمثلة أخرى من القرآن لما جاء فيه الحذف]

« وما جاء منه في القرآن كثير كقوله جل ثناؤه: « وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى » (الرعد:٣١) كأنه قيل: لكان هذا القرآن. » (١٠)

---

١٠) يقدر الرّماني الجواب بقوله:"لكان هذا القرآن" ويصدره بقوله :"كأنه قيل" إيماء إلى أنّه ظاهرٌ . والآية ورادة في سياق سورة" الرعد" المستفتحة بقوله تعالى «بِسْمِ اللهِ الرّحمَنِ الرَّحيمِ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » وهو استهلالٌ مبينٌ عن عظيم قدر ذلك القرآن .

وفي الإشارة بـ«تلك» كما أشرتُ قبل آية على أنَّ المُشار إليْه حاضرٌ مشهود للبصائر كمثلِه شهودُ المحسوسات للأبصار.

وفي الإعراب بقوله«الّذِي أُنزِلَ إليْك مِن ربّك» دلالةٌ على أنَّ صلة الموصول هنا هي مناطُ القصد .

وفي الإعراب عنه ﷻ بقوله «ربّك» ما يهدي إلى أنَّ ما فيه إنما هو تربيةٌ له،ولأمته، وهو ﷻ ما تجلّى على أحد من خلقه بعطاءات التربية كمثل ما تجلّى بها على نبيّه ﷺ والتي كان لأمته النصيبُ الأوفر منها.

وفي القرآن آيات عديدة في شأن القرآن الكريم، واستحضارها في الفؤاد واستبصارها يترعه الشعور الحق بعظيم قدر هذا الكتاب ، ممّا يحمل إلى أن يقوم العبد في مقام الحمد والشكر لله ﷻ على هذه النعمة شكرًا عقديا وسلوكيا وبيانيا .والمسلم مهما بذل في هذا من الجهد والاعتناء فهو لا محالة غير موفٍ المقام حقّه.

قوله ﷻ:« وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى » ذكر للقرآن ثلاث صفات : « سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ » ،« قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ» « كُلِّمَ بِهِ الموتى » وكل صفة من هذه هي المعربة عن عظيم قدر هذا القرآن وعظيم قدر أثره ، فما يكون به ذلك هو الأقدر على أن يكون به ما هو دون ذلك، وهذا يهدِي إلى أنّه ما من أمر من الحق والخير يراد أن يكون ،واتخذ القرآن سبيلًا إلى تحقيقه إلا كان ذلك هو الصواب ، وهو الحقّ المبين. فمن سلك غير سبيله إلى ما يريده من الحق والخير فقد ضل ضلالا مبينا .

طوت الآية جواب الشرط«لو» تصويرًا لفخامته وعظمته،وأنّه ممَّا لا تحيطُ بِهِ العبارةُ ، فَفي التّصريح به أسرٌ له ،وتكبيلٌ للأفئدة عن الطلاقة الرشيدة عن استبصاره، فتركُ الأفئدة تسعى راشدة إلى تصوّر شيْءٍ من فخامنته وعظمته، هو الأحمد ، فكلّما جددت اسْتبصارًا تجد لها منه عطاءً. فكان ترك البيان أزيد في الإبانة.

يقُول الطاهر بن عاشور - رَضيَ اللهُ عَنْهُ – في تأويله الآية في تفسيره«التحرير والتنوير»:

ومنه (وسِيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلَى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إذَا جَاءُوهَا وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)(الزمر: ٧٣)
كأنه قيل: "حَصَلُوا على النّعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير "([11])

«وَالْمَعْنَى: لَوْ أَنَّ كِتَابًا مِنَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ اشْتَمَلَ عَلَى أَكْثَرَ مِنَ الْهِدَايَةِ فَكَانَتْ مَصَادِرَ لِإِيجَادِ الْعَجَائِبِ لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ كَذَلِكَ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ قُرْآنٌ كَذَلِكَ، فَهَذَا الْقُرْآنُ لَا يُتَطَلَّبُ مِنْهُ الِاشْتِمَالُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ سُنَنِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ.
وجَوَابُ لَوْ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْمَقَامِ عَلَيْهِ. وَحَذْفُ جَوَابِ لَوْ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: (وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) [سُورَةَ الْأَنْعَامِ: ٢٧] وَقَوْلِهِ: (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ)[سُورَةَ السَّجْدَةِ: ١٢.
وَيُفِيدُ ذَلِكَ مَعْنًى تَعْرِيضِيًّا بِالنِّدَاءِ عَلَيْهِمْ بِنِهَايَةِ ضَلَالَتِهِمْ، إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهَدْيِ الْقُرْآنِ وَدَلَائِلِهِ وَالْحَالُ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا أَمَرَ الْجِبَالَ أَنْ تَسِيرَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَتَقَطَّعَ وَالْمَوْتَى أَنْ تَتَكَلَّمَ لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ بَالِغًا ذَلِكَ وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْكُتُبِ، فَيَكُونُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ أُبَيِّ بْنِ سُلْمَى مِنَ الْحَمَاسَةِ: وَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا ... لَطَارَتْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِرِ
وَوَجْهُ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنْ بَيْنِ الْخَوَارِقِ الْمَفْرُوضَةِ مَا رَوَاهُ الْوَاحِدِيُّ وَالطَّبَرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، أَبَا جَهْلٍ وَابْنَ أبي أميّة وَغيرهمَا جَلَسُوا خَلْفَ الْكَعْبَةِ ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: لَوْ وَسَّعْتَ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ فَسَيَّرْتَهَا حَتَّى تتسع أَرْضنَا فنحترثهما فَإِنَّهَا ضَيِّقَةٌ، أَوْ قَرِّبْ إِلَيْنَا الشَّامَ فَإِنَّا نَتَّجِرُ إِلَيْهَا، أَوْ أَخْرِجْ قُصَيًّا نُكَلِّمْهُ.
وَقَدْ يُؤَيِّدُ هَذِهِ الرِّوَايَةَ أَنَّهُ تَكَرَّرَ فَرْضُ تَكْلِيمِ الْمَوْتَى بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى)[سُورَةَ الْأَنْعَامِ: ١١١] ، فَكَانَ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى تَهَكُّمِهِمْ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ قُطِّعَتْ مَسَافَاتُ الْأَسْفَارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:(لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) [سُورَةَ الْأَنْعَامِ: ٩٤] . » .

••••

(١١) جاءت الآية في خوتيم سورة" الزمر" المعقودة على قوله تعالى« فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ • أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ » وهو تصور مشهدًا من مشاهد يوم القيامة،ولا تسلك سبيل الإنباء بك ذلك سيكون، بل تأتني به في أسلوب مقرر أنه كان، فجاءت بالفعل ماضيا«سيق» مبنيًا لغيرِ الفاعل إيماء إلى أن فاعل ذلك السوق متعين ، لا يكون إلا منه آمرًا مُقدرًا .
وفرق بيْن قوله «سيق» في هذه الآية، وقوله «سيق » في الآية قبلها. فالفرق بين السوقيْن هو الفرق بين المُساقُ في كل :«الّذين كفروا»و«الّذين اتقوا» الإعراب عن الفعلين بالسوق ليس من قبيل المشاكلة، بلْ هو من قبيل الحقيقة وفي نائب الفاعلِ قرينةُ هاديةٌ إلى بيان نوع الفعل وكيفيته ومقصده. فلم يكن قوله تعالى «وسِيقَ الّذِينَ اتّقوا » من قبيلِ المشاكلة لقوله

« سِيقَ الّذِين كَفرُوا » كالتي في " خيطوا لي جُبّةً وقميصا" ،ولست إلى القولب أن "المشاكلة" البديغية من أساليب القرآن ،والقول به فيه فيه نظرٌ عندِي ،وليس هنا مقام تحقيقه

ويفاد من الإعراب عن الفعلين بقوله «سيق» أن ألأفعال والأشياء يوم القيامة،وإنْ تقاربت في ظاهرها، فإنّها في حقائقها ومقاصدها ومآلتها متختلفة جدًا، فليس حشر الذين اتقوا كمثله حشرالذين كفروا...

يقُول البقاعي(٨٨٥هـ) في تفسيره (نظم الدرر) في تأويل الآية:« فشتان ما بين السوقين! هذا سوق إكرام ، وذاك سوق إهانة وانتقام ، وهذا لعمري من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار ، فتدل على هوانهم بعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وعلى هيئتها في حق الأبرار ، فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله معجز المباني ، متمكن المعاني ، عذب الموارد والمثاني.»

ولعلك تقول : لم لم يقل :والذين آمنوا في مقابل الذين كفروا؟

أقول الذين اتقوا هنا اي اتقوا الكفر الذي وقع فيه اولئك، فيعم كل طبقات المسلمين، فالاتقاء هنا مقيد بقرينة (الذين كفروا) وليس كالذي في قول الله تعالى :« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » (الأعراف:٢٠١)،و« إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) »(النحل: ١٢٨) فهذا لطبقة من طبقات الأمةفوق طبقة"الذين آمنوا" و" طبقة" المؤمنين" ةمن قبل طبقة" المتقين"

طوت الآية جواب«إذا» لتمنح ففؤادك الرشيد المستبصر طلاقة التصور الرَّشيد لما سيكون لهم ، فلك من قولهﷻ «الجنة» وقد علمت من نعوت القرآن لها ما علمت ما يعين فؤادك على أن يجتهد في تصور ما سيكون، تصورًا يحمله إلى أن يبقَى على حال لا يبعدُه عن أولئك الذي تحدثه الآية عنهم، وتحمله إلى أن يسعى إليهم، ويسأل عنهم،ويبحث حتى يبلغهم فإذا ما وجد منهم لزم ؛ ليكونَ فيهم ومنهم ،فيكون يوم القيامةِ ممّن أخبر القرآن عنهم بهذه الآية، فيستحيل ما قرأ واستبصر واقعًا مشهودًا معاشًا ،وفي هذا من التثقيف النفسي والعقليّ والقلبي ما فيه ، وذلك من فيض رحيمته ﷻ

•••••

[المقتضي أن يكونَ الذّكر في هذه السياقات أبلغ]

« وإنّما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان ، فحذف الجواب في قولك: " لو رأيت عليًا بين الصفين " أبلغ من الذكر لما بيناه. » (١٢)

[بيان منزلة إيجاز القِصر من إيجاز الحذف]

وأمَّا الإيجاز بالقِصَر دون الحَذْف فهو أغمض مِن الحذف وإن كان الحذف غامضًا ، للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلُح فيها من المواضع التي لا يصلح (١٣)

---

١٢) يُبين الرّمّانيّ عن ما يجعل الحذف المطابق لمقتضى الحال أبلغَ من الذكر بأمر متعلقٍ بأثره وفعلِه في النفسِ المتلقيته المليكة مهارات وخبرات وأدوات التلقي

أبان أن هذا الحذف يجعل النفس المتلقية الرشيد تذهب كلّ مذهب ممكن منضبط بالسياقِ والمغزى في تبصرها المعاني ، فتتسع حركتها، ويتكاثرمحصولها ، فيكون ذلك لها أنفعَ ،وأمتعَ. وَمِن حقِّ المتلقِّي على المُبِين أن يعان على أن تكون له الطلاقة الراشدة الحكيمة وهو يتلقي بيانه في تصور المعاني الصحيحة الّلطيفة الطريفةالمتجددة المتكاثرة . لا يحرمُ من شيْءٍ منها، فيكون في تدبره آياتِ الذكر الحكيم ، كمثله في الجنة يوم القيامةِ لا يُحرم من طيباتِها شيئًا. فالقرآنُ جنة المسْلم في الدنيا

روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضيَ اللهُ عَنْهُما – عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِى الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا »فأهل القرآن في الدجنيا تترقى أرواحهم في درجات جنة الدنيا:«القرآن» كلما قرأ وفقه وتأدب بآية ارتقت روحه إلى الدرجةِ الأعلى،ويجد ذلك من نفسه، يجد مزيدًا من أقبله على القرآن،وأقبالًا على تدبرهوفقهه ،والتأدب به،والدعوةبه إليْه. ذلك آية بينة على أن المرء يرقَى فيس جنة الدنيا ، فمن وجد في حاله مع القرآن ذلك ، فليحمد الله ربّ العالين

---

١٣) سبقَ للرّمّانّيّ عَن حقيقة" إيجاز القِصر" بقوله:« بنيةُ الكلامُ على تقليلِ اللفظِ وتكثيرِ المعنى » وبيَّنتُ هناك دقّة عبارتِه تلك ، وأنه أسبق من صرّح بهذا المُصطلح وتعريفه مَن قرأتُ له

وقولهم :"القِصَر" بكسر الفاء الكلمة (القاف) وفتح عينها (الصّاد) للفصل بينها وبين " القصْر" بفتح فاء الكلمة، وسكون عينها، فهو مصطلح يعادل مصطلح الحصر، فهما (القِصَر) و(القصر) مصطلحان ، والكلمتان في الدلالة اللغويّة سواء، فهما معًا خاف" الطول" فالتفريق إنما هو الدلالة الاصطلاحية.

وإذا ما كان الرمانيّ في القرن الرابع قد اصفى مصطلح الإيجاز القصر في مقابل مصطلح إيجاز الحذف إن من أهل العلم من دعل إيجاز الاختصار [كذا] في مقابل إيجاز الحذف على ما تراه في رسالة «موجز البلاغة»للطاهر بن عاشور، يقُول :« وإيجاز الاختصار أداء المعاني بألفاظ أقل منها عدداً دون حذف بل بتوخي ما يفيد من الألفاظ عدة معان نحو قولهم في المثل ((القتل أنفى للقتل)) وقوله تعالى: ((ولكم في القصاص حياة)) »

ولست بمسترض تسميت الطاهر بن عاشور " إيجاز القصر" إيجاز الاختصار، فالاختصار إنما هو تقليل ألفاظ العبارة دون أن يكون ذلك التقليل لتكثير المعنى. في قلب المستمع.

وليس يخفى عليك أنّ المصطلحين معًا يتلقيان في الإيجاز، فأسلوب القصر بـ«ما،وألا » وما شاكلهما،وبـ«إنما»و«التقديم »إنما هو من قبيل إيجاز القصر. فكلأسول تخصيص حصري «أُسلوب القصر: التخصيص» مشتمكل على "إيجاز القصر" فالعبارة فيه مبنية على تقليل اللكلم،وتكثير المعنى ، فجملة القَصر إنما هي دلالة على جملتين: الأولى تثبت حكما لشيءٍ،والأخرى تنفيه عن غيرِه الذي هو من بابِه،وليس عن كل ما عداه من غير بابه.

فأنت إذا قلت : إنما رأيت محمدًا، فالمعنى أنك تثبت رؤيتك محمدًا وتنفيها عن غيره ممنله به علاقة نسب أو نحوه،وليس عن كل إنسان غيره أو مخلوق مثله، فذلك لا يقوله عاقل بتةً، فسياقُ الحال ضابط من نفي عنه الحكم. فجملة: "إنما رَأيتُ محمدًا" هي أسلوب قَصرٍ ،وأساوب إيجاز قِصرٍ معًا. وهذا ما يجبُ أن يكون حاضرًا،وحقه ألّا أذكره لمثلك وأنت أنت طالب علم ، ولكني ذكرته حيطةً خِيفةَ أن يكون قد غُفِلَ عنه.

الرّمّانيُّ يَذّهَبُ إلى أنّ الإيجاز بالقِصَر أغمضُ من إيجاز الحذف وإن كان الحذف غامضًا" فهو ُفَاضل بيْن مستوياتِ الغموض،والغموض هنا لا يراد به ما سَمّي بـ"التعقيد" فإن التعقيد قبح، يستهلك المعاني ، يراد بالغموض أن البيان الغامض لا يسوق إليه مكنوزه بمجرد أن تسمعه أذنك، بل هو يستوجبُ منك أن تتلبث مستبصرًا وأنمت مليك لأدوات الاستصار ذو نصيبٍ حميد من المهارات والخبرات في الاستصار، فحاجة إيجاز القِصر إفهامًا وتفهمًا إلى هذه الأدوات والمنهارات والخبرات أكثر وأشد من حاجة " إيجاز الحذف" يقُول راشدًا :« للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلُح فيها من المواضع التي لا يصلح » أبان لك عن الجهة التي جعلتْ من "إيجاز القصر أغمض من إيجاز الحذف" والعلم بالمواضهع التي يصلح فيها أحدهما،ولا يصلح فيها الآخر هو طليعة العلم بما يستحقه كلٌ في موضِعه، وامتلاك القدرة على تحقيق تلك الاستحقاقات على كمالِها.

صنعة "إيجازِ القصر" تقتضي مزيدًا من اللقانة والاقتدار على الوفاء بحق المعنى المكنوز في الصدر، ذلك أنّ الإيجاز أتٍ من أربعة رئيسة :

- أت من اختيار مكونات العبارةِ
- وأت من صنعة في التكوين والتركيب

(تبيين صُورٍ من إيجــاز القِصَر]

فمن ذلك: {ولكم في القصاص حياة}(البقرة:١٧٩) (١٤) ومنه {يحسبون كل صيحة عليهم}(المنافقون: ٤) (١٥)

- وأنتٍ من اصطفاء سياقٍ تقام فيه العبارة
- وأت من حيطة أن يكون ثم ما يُعيق عن استبصار ما فيه من لطف ودقّة، فيكون به تقصيرٌ في الوفاءِ بحق المستمع، فإن من حقه على الْمُبين أن يحميه من أن يفهم كلامه له على غيرِ وجهه

وقد قالها الحفيد العباسي - رَضيَ اللهُ عَنْهُ – : « يَكفِي مِن حظّ البلاغةِ أن لا يُؤتى السَّامعُ مِن سُوء إفهامِ النّاطقِ وَلا يُؤتَى الناطِقُ من سُوء فهم السَّامِعِ»

وهذه قاعدةٌ كلية علية القدر، مما جعل الجاحظ ،وهو من هو يقول عقب إيرادها : «أمّا أنا فأسْتحسن هذا القولَ جدًا»(البيان والتبيين ج:١ص ٨٧)..

١٤) أورد الرّمَّاني ستَّ آياتٍ ، دون أن يبين ما فيها من إيجاز قِصر، ثم عمد بعدُ إلى الآية الأولى ، فأبان ما فيها مناظرًا بما ورد عن العرب من قولهم«القتل أنفي للقتل » وسأرجئُ القول في ما في قول الله تعالى «وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ)» إلى الموضع الذي سيُبين هو فيه عن بعضِ ما فيها من دقيق المعاني ولطيفها.

•••••

١٥) جاء قوله تعالى :(يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) في سورة "المنفقون" ضمن قوله تعالى (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)(٤) وهي آية جامعةٌ خمس صفات قائمة فيهم في كل زمان ومكان.

١) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
٢) وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ
٣) كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ
٤) يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ
٥) هُمُ الْعَدُوُّ

الثلاث الأول: كاشفة عن برَّانيّهم ، والثنتان الآخيرتان كاشفتان عن جُوَّانِيّهم.وقدم صِفَاتهم الحسية على المعنوية لأنها أيسرُ إدراكًا، وأشد ظهورًا ،وهذه الثلاث هي الغالبُ على أمرهم، فهو ذكرٌ لمجموعهم لا لجميعهم ، ففيهم من لا تعجبك أحسامهم، وفيهم من لا يُحسن القول، وفيهم من هو ضئيلٌ تقتحمه الأعين ،ولكن ليس فيهم من لا يحسبُ كل صيحة علَيْه، وليس فيهم من ليس هو بعدٍّو للحقِّ والخيرِ.

قوله تعالى« يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » يُجْمِل لك الحالةَ النَّفسيّة التي تتملَّكهم، ولو شئت أن تفصلها لملأت أطمارًا ، فالهلع آخذ بخناقهم، حرموا نعمة الأمن النفسيّ، وإن أحاطت بهم الحصون والحراس ، وهذا تراه في كلّ الظلمةِ الفجرةِ ، يُحيطون أنفسهم بمن يَحميهم حتَّى في مجالسِهم الخاصَّة ، وبيْن أصحابِهم وأخدانِهم وخاصتِهم وندمائهم، فهم لا يثِقون البتَّةَ بأحدٍ، لأنَّهم يعلمون أنَّهم هم الخونة ، ويعلمُون أنَّ النَّاس ولا سيما الّذين مِن حولهم يعلمون أنَّهم خونَةٌ ظَلَمَة فجرة، يخونون دينهم وأوطانهم وأهليهم ، فلا تستقر نفوسُهم ،ولا تطمئن لأقربَ النَّاس إليهم.

وفي الإعراب بقوله تعالى «يحسبون» إيماءٌ إلى أنَّ ذلك التَّعميم إنّما هو مخالِفٌ للحقيقة، فليست كلُّ صيحةٍ عليْهم .

ومِن السُّنةِ البيانيّةِ للقرآن أنَّه يستعمِلُ الفعلَ «حَسِبَ» من أفعال الاعتقادِ فِي سياقِ خطأ الاعتقاد وضلالتِه ، ولا يَستعملُه فيما شابه شيْءٌ مِن الصَّوابِ.

وهذا وجهٌ منْ وجوهِ إعجازِ الذِّكر الحكيم.

أقامهم الحقُّ ﷻ في رَهب ورعب ، وأنتَ ترَى هذا من حولِك ، فكلما رأيت من يُبالغ في أن يُحيط به الحرص ، فاعلمَنّ علم يقين أنّه من الخونةِ الظّلمة الفجرة، وأنه يعلم ذلك، ويعلم أن المَظلومين يتربَّصون بِه.

تفصيلُ الأحوال النَّفسيّة التي تعترِي أولئك طيلة حياتهم التي أوجزها قوله تعالى « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » أمرٌ لا يكادُ يُحاط بِه. ولو أنَّ الإنس والجن اجتهدوا في أن يأتوا بجملة تقومُ مقامَ هذه الجملة في سياقها لما اسطاعوا إلى ذلك سبيلًا .

ثم يأتِيك قوله تعالى «هُمُ العَدُوّ» مبينًا عن أنَّهم اتخذوا الآخرين آعداءً لهم من سوء ظنّهم بالنّاس كلّ النّاس ، فليس لهم من صديقٌ ، وليس فِي النّاس مَن هُو جديرٌ بأن يسالموه ويثقوا بِه ، فحقُّهم على كلّ مسلمٍ أن يقفَ منهم موقفَه من عدوه، ولذا جاء قوله تعالى مِن يعذ ذلك : «فَاحْذَرْهُمْ»

وتبصر الإعراب بقوله" العَدُو" دون "الأعداء" إيماءٌ إلى أنَّهم جميعًا سواءٌ في هذا ، وعلى درجةٍ واحدةٍ من العداوة، فليس فيهم مَن هو أقلُّ درجة في العداوة للحقِّ والخيرِ، فلا تثقنَّ بأحدٍ منهم. وكلَّما تقدَّم الزَّمان تكاثرَ المُنافقون .

كانوا في زمن سَيّدنا رَسُول اللهِ صلّى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه محصورًا عددهم، وقد أنبأ بأسمائهم سَيّدنا رَسُول اللهِ صلّى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه سيدنا حذيفة رضي الله عنه (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ،لابن عبد البر . تحقيق البجاوي. ج:١ص ٣٣٥) ثم تكاثروا من بعد عصر النبوة، وهم اليوم أكثر عددًا ،وأنكى عداءً ،وأمهر نفاقًا .

حقٌّ مبينٌ أن يكونَ بيانُ الوحي قرآنًا وسنة عنهم أمرًا كالفريضة على كلّ مسلم أن يجتهد في فقه هذا البيان ، وأن يتخذَه نورًا يهتدي به، ومستمسكًا يعتصم به .

ومنه {وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها} (الفتح:٢١)[١٦]

ولعل الله ﷻ يعينني على أن استقرئ آيات الذكر الحكيم التي عرضت لبيان النفاق والمنافقين وما صحّ عن سَيّدنا رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ وسّلم عَلَيْه وعَلى آلِه وصَحبه في شأنهم. فاجتهد بعونه تعالى في تجلية جمهرةٍ من معاني الهدى في هذا البيان العظيم. والله تعالى هو المستعان على طاعته إخلاصًا وإتقانًا.

•••••

١٦) جاء قوله تعالى (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) في سياق قوله تعالى من سورة" الفتح" :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١))(سورة الفتح)

آياتٌ سيقت في بيان شأن الذين كانوا في بيعة "الرضوان" وما أكرموا به (إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)(الفتح:١٠)

استفتح الآيات بهذاالقسم(لقد رضي الله عن المؤمنين...) وهذا وحده هي التي يستشرف إِلَيْها أولو الأباب. اكتساب رَضوانﷻ ، فإذا ما تحقق لم يبق في الحياة ما يمكنُ أن يشغل قلب المؤمن. ثم يتوالى بيان ما كان لهم من المناقبِ التي بمثل أصحابها قامتْ هذه الأمة،وبلغ الإسلام كلّ ما يبلغه ليلٌ أو نهارٌ من الأرضِ .

جاءت الآيات تفصيلا لقوله (إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) فعددت الآية عطاء الله ﷻ لهم:

= أَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ
= أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا
= وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
= وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ
= وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا
= وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا

قوله (وأخرى) نعت لمنعوت محذوف تقدجيره (ومغانم أخرى) وفي تعتها بأها لا يقدرون عليها تفخيم لها ،فإذا الفؤاد الرشيد يذهب في استبصارها وتصورها مذاهب شتى كلما بلغ مذهبًا تراءبله مذهب آخر، فيهو يتنقل بينها لا يبلغ لها منتهى ،وفي هذا من التلذذ ما فيه،وهذا وحده عطيةٌ لا يقدرها إلا أولو الألباب ..

وفي قوله تعالى(قد أحاط الله بها) ما يملأ الفؤاد باليقين بأن تكون لهم عظية، فهو القائل لهم قبلُ (فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)

ومنه {إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس}(النجم: ٢٣) (١٧)

يقُول الطاهر بن عاشور -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- :« فَعُلِمَ أَنَّ الْآيَةَ أَشَارَتْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَغَانِمِ:
نَوْعٌ مِنْ مَغَانِمَ مَوْعُودَةٍ لَهُمْ قَرِيبَةِ الْحُصُولِ وَهِيَ مَغَانِمُ خَيْبَرَ
وَنَوْعٌ هُوَ مَغَانِمُ مَرْجُوَّةٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُعَيَّنٍ وَقْتُ حُصُولِهَا وَمِنْهَا مَغَانِمُ يَوْمِ حُنَيْنٍ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْغَزَوَاتِ.
وَنَوْعٌ هُوَ مَغَانِمُ عَظِيمَةٌ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ نَوالُهَا قَدْ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَعَلَّهَا مَغَانِمُ بِلَادِ الرُّومِ وَبِلَادِ الْفُرْسِ وَبِلَادِ الْبَرْبَرِ. وَفِي الْآيَةِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ هَذَا النَّوْعَ الْأَخِيرَ لَا يَنَالُهُ جَمِيعُ الْمُخَاطَبِينَ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي ذِكْرِهِ بِضَمِيرِهِمْ، وَهُوَالَّذِي تَأَوَّلَهُ عُمَرُ فِي عَدَمِ قِسْمَةِ سَوَادِ الْعِرَاقِ وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ [الْحَشْر:١٠) »(التحرير والتنوير ج:٢٦ص ١٨١)

•••••

١٧) جاء قوله تعالى(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) في سياق سورة"النجم" في قوله تعالى:(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى).(النجم: ٢٣)
من بعد أنْ قضى أنّ جعلهم الأنثى (الملائكة والأصنام وإناث الأنعام) لله تعالى، ولهم الذكر إنّما هو قسمة ضِيزى معربًا بهذه الكلمة الغريبة الثقيل نطقُها تصويرا لما عليه فعلهم وأن قسمتهم قسمة جائرة جورًا لم يُعهد قبلُ، ولا يكون في الناسِ من يرتضيها لشناعتها التي صورتها الكلمة" ضيزَى" .وفي الإعراب عن هذه القسمة بأنّها" ضيزى" من "إيجاز القِصر" ما لا يخفى عليك ، فربّ كلمةٍ تصطفى في الإعراب عن معنى، فإذا هي الباسطتُه في فؤادِ المُستمعِ ، فيتكاثرُ المعنى أيما تكاثرٍ.وقرَّر أنّ هذه الأصنامَ إنْ هي أسماءٌ لا حقيقة لها، فهو يتعلقون بسرابٍ.
(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠))(يوسف) (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) (الحج: ٧١)
وحاء قوله تعالى : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) مصورًا ما هم عليه مجتمعين في صورة ظن وهوًى،وليس أحمق من قومٍ يتلاقون على ظن وهوى أنفس ، ويتخذون ذلك إمامًا وكأنّه ليس فيهم رشيدٌ يشير عليْهم ، ويُبيّن لهم أنّهم ليسوا على حقٍّ،واجتماعهم عليْه لا يَعني أنهم على حقٍّ .
وهذا ما تراه في الناس اليوم . يجتمعون على باطل، وعلى فسوق، واتخذوا المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وجعلوا شيوع الأمر في النّاس برهانًا على أنه حقٌّ، وأنّه معروفٌ غير منكر، وأنَّ قلّة الشّيْءِ فِي النَّاس برهانٌ على أنه باطلٌ، وأنه شرٌّ. بدعوى أنّ سيّدنا

ومنه {إنما بغيكم على أنفسكم} ([18])

رَسُول اللهِ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه قال: « إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلاَثِ خِلاَلٍ : أَنْ لاَ يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعًا وَأَنْ لاَ يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وَأَنْ لاَ تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلاَلَةٍ »(سنن أبي داود: الفتن)

وضلُّوا فذلك خطابٌ لأمته أهل طاعتِه ، فدعوى أن الفسقة إذا اجتمعوا على شيءٍ من فسقهم أنه حقٌ وهدًى إنما هو قولٌ ضليل، لا يرتضيه إلّا عَمِيٌ أو ذو هوًى هو أشد عليْه من العمَى. ولو أحصيت المستمسكين بهديه ﷺ اليوم في قومك، والفاسقين لرأيت أن الفاسقين أضعاف المستمسكين بسنته . أفيكون الفسوق هدًى ؟!!!

••••••

[18]) جاء قوله تعالى (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) في سورة "يونس" في سياق قوله تعالى:(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣).(يونـس)

وهي آياتٌ مصورة ما عليه جمهرة" الناس" والقرآن يغلبُ عليه الإعراب بكلمة" الناس" حين يشير بها إلى واحدٍ من امريْن أو هما معًا :

الأول : العموم كما في قولِه تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)(البقرة) القصد هنا إلى " العموم" وقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ) بهذه الصيغة لم يرد في القرآن إلا في هذا الموضِع، فهو من فرائد سورة "البقرة" وفرائد سورة البقرة كثيرةٌ .

والآخر: الدلالة على أنهم مضطربون بحاجةٍ إلى ما يضبط حركتهم، فيأتي من بعد النداء عليهم بما يضبط حركتهم من أمرأو نهي. .(بِسْمِ اللهِ الرّحمَنِ الرَّحيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)(النساء:١)

جاءت الآيات مصورة لما عليه " الناس" من إذا جاءتهم الرحمة من بعد الضراء لم يكن منهم ما يليق بما أنعمن بِهِ عليهم مِن الرَّحمة ضاربًا لهم مثلًا هو القائم فينا إلى يومنا هذا إذا أقامنا في بأساء تضرعّنا ،فإن استجيب لنا ونجينا بغينا في الأرض، فأبان ﷺ أن بغينا إنّما هُو على أنفسنا، وليس على غيرِنا.

وفي هذا من التّهديدِ ما تنخلع له القلوب الراشدة. وإيراد هذا في أسلوب قصر بـ"إنّما" آية على أنه أمرٌ من حقّه أن يكون مسلمًا لا يتوقفُ فِيه فضلًا عن ينكر، وأسلوب" القصر" كما سبقت الإشارة إنما هو من أساليب إيجازِ القصرِ ، لتضمنه مفاد جملتين: جملة إثبات الحكم لبعضٍ ، ونفيه عن بعضٍ.

ومنه: (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)(فاطر: ٤٣)([١٩])

وفي قوله تعالى (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من التهديد ما فيه.فهذه الكلمات : « مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ » «فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»فكل من معاني التهديد والوعيد ما لو رفبت في تفصيله لملأت أطمتارًا. وقوله: «فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» يهدي إلى لازم الإنباء ،وهو العقوبة العدل، ولم يصرح بها إيماء ‘لى عظمتها، ولتذهب النفوس في تصور هذه العقوبة مذاهب عديدة لا تتناهى.وهذا أيضًا من مسالك" إيجاز القصر" التي لا تُحصَى

••••••

١٩) وجاء قوله تعالى(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) في سياق سورة (فاطر) ضمن قوله تعالى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥) (فاطر)

جاءت هذه الآياتُ رأسَ المَعنى القُرآنيّ فِي سورة "فاطر" التي هي خمس خمس سور استهلت بالحمد لله" أم الكتاب – الأنعام – الكهف – سبا – فاطر) والسور الأربع الأخيرة اختصت كل واحدة بحمدِ الله تعالى على نعمة خاصة، بينا "أم الكتاب" جاء الحمد فيها على النعمِ كلّها.

سُورة"فاطر" كان الحمدُ فيها على نعمة الإبقاء الأخير الدائم الذي لن ينقطع،وهو البقاء الذي يتحقق فيه العدلُ المطلق مع من كفر، ، فكان اسمُه " الدل" هو المتجلي به علِيْهم ويتجفف فيه الرحمة الخاصة، للذين آمنوا ،فكان اسْمُهُ :«الرّحيم» هو المتجلّي به علِيْهم. «بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) »(فاطر)

الآية الثانية منها متحققة على كمالها وديمويتها في الدار الآخر. « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا »متحقق يوم القيامةِ على كمالِه ودَيموميته مع الّذِين آمنُوا ، وقوله «وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ» متحققٌ يوم القيامةِ عَلَى كَمنالِه وَديموميّته، مع الذين كَفروا.

وأنت بهذا يمكنك أن تلحظما بين فاتحة السورة " أصل المعنى" وخاتمتها" رأس المعنى" .

يبين في هذه الآيات التي ختمت بها سورة " فاطر" ما عليه الذين كفروا من نقضٍ للعهود ،ومن الاستكبار في الأرض ومن المكر السّيء ، فصورهُم في صورةٍ لا يَرضَى عاقلٌ أن

يكون فيه شيْءٍ منْ ذلِك ، ولا يَرضَى أن تكونَ له علاقةٌ بمَن فيه شيْءٌ مِن تلك الثّلاث المُوبقات والنظم القرآني نسقها نسقًا متصاعدًا في النكارة :نقض العهد، والاستكبار ،ومر السيّءِ .وقضى الله بأن المكر السيّءِ لا يحيق إلا بأهلِه. جعل ذلك حطككا عامًا،وليس خكمًا خاصًا بهم،ولذا لم يأتي النظم ،ولا يحيقُ مكرُهم إلا بهم. جعله حكمًا عامًا قائمًا في كل زمانٍ ومكانٍ وحالٍ، ليرتدع كل عنأن يحوم حول المكر السيء،

وفي إسناد الإحاطة إلى المكر السّيئ إيماءٌ غلى أن المكر نفسُه من عظيم استحقاقهم الاحاطة به هو الذي يكونُ منه ذلك، فكأنه لو خلّي بين المكر السيءِ وأهله لأحاط بهم ، وهذا لا يكونُ إلا غذا كان أهله قد بلغوا فيه مبلاغًا جد عظيمٍ. وهذا كما ترى فيه من المعاني ما تتوافد على فؤادك الرشيد كلّما تذكر، فإذا جمعت إلى ذلك ما يكون من نظم جملة القصر كان ذلك أوغل في "إيجاز القِصَر" وفيالإعراب عنهم [انهمأهل المكر السيءِ ما يصور لك وثيق العلاقة بيْنهم وبين المكر السيءِ، فهم يلزومه كما يلزم المرءُأهله،وهم يرعونه كما يرغَى المرءُ أهله وهذا لا يكون إلا غذا كانوا قد بلغوا الذروة في السّوء. فلا يليق بهم إلاأن ينقلب عليهم ذلك المكر الذي بالغوا في الاعتناء به،ورعايته . وفي هذا تصوير لكل إنسانٍ أنّ كلّ سوءٍ يتعهده فإن ذلك السوء سيكون هو وبالًا عليْه،ولا يرضَى إلا بأن يحيق به .

وإذا كان الرّمّانيّ قد جعل قولالله تعالى :(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} (فاطر: ٤٣) من"إيجاز القصر" فكان رشيدًا، فإن الخطيب القزويني (ت:٧٢٩)بأكثر من ثلاثة قرون جعل هذامن قبيل المساوة.(الإيضاح(ومعه البغية) ج:٢ص٣٣١) ولم يبيّن كيف هو من" المساواة" وقد اعترض عليه في هذا الطاهر بن عاشور :

« وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) قَدْ جُعِلَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي مِثَالًا لِلْكَلَامِ الْجَارِي عَلَى أُسْلُوبِ الْمُسَاوَاةِ دُونَ إِيجَازٍ وَلَا إِطْنَابٍ. وَأَوَّلُ مَنْ رَأَيْتُهُ مَثَّلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِلْمُسَاوَاةِ هُوَ الْخَطِيبُ الْقَزْوِينِيُّ فِي «الْإِيضَاحِ» وَفِي «تَلْخِيص الْمِفْتَاحِ» ، وَهُوَ مِمَّا زَادَهُ عَلَى مَا فِي «الْمِفْتَاحِ» وَلَمْ يُمَثِّلْ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ» لِلْمُسَاوَاةِ بِشَيْءٍ ، وَلَمْ أَدْرِ مِنْ أَيْنَ أَخَذَهُ الْقَزْوِينِيُّ فَإِنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الْقَاهِرِ لَمْ يَذْكُرِ الْإِيجَازَ وَالْإِطْنَابَ فِي كِتَابِهِ.

وَإِذْ قَدْ صَرَّحَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ» «أَنَّ الْمُسَاوَاةَ هِيَ مُتَعَارَفُ الْأَوْسَاطِ وَأَنَّهُ لَا يُحْمَدُ فِي بَابِ الْبَلَاغَةِ وَلَا يُذَمُّ» فَقَدْ وَجَبَ الْقَطْعُ بِأَنَّ الْمُسَاوَاةَ لَا تَقَعُ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ بَلْهَ الْمُعْجِزَ. وَمِنَ الْعَجِيبِ إِقْرَار الْعَلَامَة التفتازانيّ كَلَامَ صَاحِبِ «تَلْخِيصِ الْمِفْتَاحِ» وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا مِنَ الْمُسَاوَاةِ وَفِيهِ جُمْلَةٌ ذَاتُ قَصْرٍ، وَالْقَصْرُ مِنَ الْإِيجَازِ لِأَنَّهُ قَائِمٌ مُقَامَ جُمْلَتَيْنِ: جُمْلَةُ إِثْبَاتٍ لِلْمَقْصُودِ، وَجُمْلَةُ نَفْيِهِ عَمَّا سِوَاهُ، فَالْمُسَاوَاةُ أَنْ يُقَالَ: يَحِيق الْمَكْر السيّء بِالْمَاكِرِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَمَا عَدَلَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى صِيغَةِ الْقَصْرِ فقد سلك طَرِيقَةَ الْإِيجَازِ.

وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير ([20])

وَفِيهِ أَيْضًا حَذْفُ مُضَافٍ إِذِ التَّقْدِيرُ: وَلَا يَحِيقُ ضرّ الْمَكْر السيّء إِلَّا بِأَهْلِهِ عَلَى أَنَّ فِي قَوْلِهِ: بِأَهْلِهِ إِيجَازًا لِأَنَّهُ عَوَّضَ عَنْ أَنْ يُقَالَ: بِالَّذِينِ تَقَلَّدُوهُ. وَالْوَجْهُ أَنَّ الْمُسَاوَاةَ لَمْ تَقَعْ فِي الْقُرْآنِ وَإِنَّمَا مَوَاقِعُهَا فِي مُحَادَثَاتِ النَّاسِ الَّتِي لَا يُعْبَأُ فِيهَا بِمُرَاعَاةِ آدَابِ اللُّغَةِ.»(التحرير والتنوير. ج:٢٣ص٣٣٦)

وإذا كان الطاهر قد ذهب إلى هذا فإن البهاء السبكي قد سبقه في كتاب «عروس الأفراح » إلى مناقدة الخطيب ، وعده من المساوة ، فقال:

« ... الآية الكريمة إن كان الاستثناء فيها مفرغا، ففيه إيجاز القصر. وإن كان غير مفرغ، ففيه إيجاز قصر بالاستثناء، وإيجاز حذف بحذف المستثنى منه، فإن تقديره بأحد.

وقال الخطيبى: هنا الاستثناء فيه مفرغ، فالمستثنى منه محذوف. وهو غلط؛ فإن الحذف لا يكون مع التفريغ.

وأورد أيضا أن فيها إيجازا فإنها حاثة على كف الأذى عن جميع الناس يحذره عن جميع ما يؤدى إلى الأذى، وبأن فيها إيجاز تقدير؛ لأن الأصل يضر بصاحبه مضرة بليغة، فأخرج الكلام مخرج الاستعارة التبعية الواقعة على سبيل التمثيلية؛ لأن" يحيق" بمعنى يحيط ، فلا يستعمل إلا فى الأجسام بالنظر إلى الكلام السابق فيه إطناب ؛ لأنه تذييل ، لقوله تعالى: وَمَكْرَ السَّيِّئِ» (عروس الأفراج،تخقيق/ هنداوي ج:١ص٥٨٤)

والأعلى أن الآية جارية مجرى "المثل" وهي من قبيل إيجاز"القِسر" وما فيها من حذف لا يجعلها من إيجاز الحذف لأن إيجاز القصر هو عمود الإيجاز فيها، وليس الحذف.

وأن تلحظ أن الأمثلة الثلاثة الأخيرة التي أورها الرّمّاني للإيجاز القصر كان نظمها نظم أسلوب "القَصر" مما يهديك إلى أن القَصْرَ "الحصر" متضمن لإيجازِ القصر. وأفراد البلاغيين له بابًا من أن جهة النظر فيه ما فيه من تخصيص وتوكيد. فالأسلوب الواحد يمكن أن ينظر إلى تركيبه من عدة جهاتٍ ،وكذلك ينظرإليه من جهة دلالته على معناه ، فيكون ممّا يسمونه علم البيان، ويمكن أن ينظر إليه من جهة ما فيه منتحسين معناه فيكون ممّت يُسمونه" علم البديع" فالاعتداد بجهة النظر في تصنيف الأساليب في علوم البلاغة الثلاثةِ ،وأبوابها.

••••••••

٢٠) قولُ الرّمَّانيّ عن "إيجازِ القِصَرِ" كثيرٌ في القرآن فيه آيةٌ على أنّ اقتضاءته المقاميّة والمقاليّة جدُّ كثيرةٍ وقويّةٍ ، ومن اقتضاءاته أنّ القرآنَ كتابُ الإنسانيّةِ جمعاءَ في كلّ زمانٍ ومكانٍ وجنسٍ ، فحقٌّ أن يكونَ بيانُه بيانًا مُترعًا بفيوضِ معانِي الهُدى التي تَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وجنْسٍ بشريّ ، وتُصْلِحُهُ أيْضًا ، فلا تكونُ في النَّاسِ كائنةٌ يرادُ العِلم بما هُو الأهدَى

والأتقَى، والأبْقَى ، والأثرَى والآهنَى فيها إلَّا كان للأعيانِ مِن أهلِ العِلمِ والفَهم ما يَستنْبطونَه مِن بيانِ القرآن ؛ لِيبقَى القرآنُ هو الملاذُ في كلِّ حالٍ لكلِّ إنسانٍ ، فلا يُفتقرُ بَتَّةً إلى كتابٍ آخر. « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ » (البقرة:١٨٥)

في القرآنِ الْكريمِ الضربانِ مِن الهداية:

هدايةِ الإبانةِ

وهداية الإعانة،والتوفيقِ والتسْديد

الضرب الأول: هداية الإبانة هي للثقلين جميعًا :

« هَذَا بَيانٌ لِلنَّاسِ »(آل عمران: ١٣٨)

«هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ »(إبراهيم:٥٢)

« هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ »(الجاثية: ٢٠)

والضَّرب الآخرُ: هداية الإعانة والتوفيق لمن قبل وأقبلَ «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(البقرة: ٢)

« ... وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » (آل عمران :١٣٨)

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأعراف: ٥٢)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » (يونس: ٥٧)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (يوسف:١١١)

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (النحل:٦٤)

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » (النحل:٨٩)

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » (النمل:٧٧)

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ • هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ » (لقمان:٢- ٣)

« قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ»(فصلت:٤٤)

«وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (الجاثية: ٢٠)

من الآيات السابقة يتبين لك جليًا أنّ هذا الضربُ الآخر : هداية الإعانة والتوفيق والتسديد تتنوع فيه الهداية بتنوع مقامات مَن تكونُ له.

مبدؤها : هداية الذين آمنوا،وهم أدنى أهل الطاعة والتزلّف ، وأعلاها هداية المحسنين، ومع كلّ هداية إعانة لكلّ هدايةٌ أبانة أعلى تتواءم مع مقام من تكون له الهداية ، فهدايته الذين اتقوا إبانة عن ضرب من مكنوز معاني الهدى فيه أعلى من هدايته الإبانة عنها للذين آمنوا، وهداية الإبانة للذين اتقوا من دون هدايته للمتقين ، وهكذا لكلّ درجة من درجات القرب الأقدس ما يليقُ بمقامه من هداية الإبانة وَهدايةالإعانة ، أمّا مفتاح هداية الإبانة ، فهو للنّاس كلّ النّاس، فمن قبل وأقبل جعل له نصيبٌ من هداية الإعانة، فكلّما ازداد ارتقاء في مقامات

القرب الأقدس التي أعلاها لمن ليس بِنَبِيٍّ مقام "الصّدّيقيّة" كان له مزيدٌ من هداية الإبانة ، فيكون فقهُه وفهمه لما هُو مكنوز فيه من معانِي الهُدَى أجلّ وأعظم ، وكذلك يكونُ نصيبُه مِن هدايةِ الإعانةِ ، والتّوفيقِ والتّسديدِ.
هذا يقتضِي أن يكونَ إيجازُ القِصَر في القرآن جدَّ وفير، ولو شئتَ أن تقولَ إنَّ كُلَّ جملةٍ وآية ... هي من "إيجاز القصر" فالقرآنُ جميعُه جميعُه "إيجازِ قِصر، واستبصار ذلك قائمًا فتيًّا إنما هو لمن كان نافذ البصرة فتيها متجددها .
القرآن الكريم ليس كتابَ تشريع بالحلّ والحرمة عقيدة وشريعة وأخلاقًا فحسب ، بل هوأيضًا كتاب تثقيف نفسيّ ،ووعظ وإرشاد وتهذيب وتنمية لمهارات التمتع بنعمتي:« التفكُّر» و«التّذوق » ، فهاتان النعمتان من أجل نعم الله - سُبْحانَهُ وبِحمْدِه - على بني آدم، اختصَّهم بها، وجعل لهم في القرآن ما ينمي مهارت الانتفاع بها والتّلذذ ، ليربطهم به، كيما لا يبحث منْ أراد الانتفاع بهما وتنميتهما وتذكيتهما عن غيره، فجعل له فيه ما هو بِحاجةٍ إلى أن يمارس شكر هاتين النعمتين شكرًا عقديًا وعمليًا، فيزداد عطاء الله تعالى منها، «{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد » (إبراهيم:٧)
والحافظ على هاتين النّعمتيْن منْ سبله حسناسْتثمارهما في خلقتا له ،ومن أجل من يُعين على ذلك «عِلْمُ البَلاغَةِ الْعَربيّ» من بعدِ حسن التزلف إلى الله تعالى بالكاعات النفيلةِ على تددها،وتنوّ عِها.
جُمْعة القول أن قولهم هذا الإيجاز في القرآن كثير آيةٌ على أنّ هذا الضرب مناتالإيجازِ ثَرِيُّ الخصائصِ والطّاقاتِ الدّلاليّةِ مِمَّا يجعله أنيسًا به مقامات ومساقات وأغراض متنوعة متعددة.
واجتماعُ ذلك فيه آيةٌ على أنَّ نَظمَه فِيه مِن الأسرارِ ما أنت مفتقرٌ إلى أن تعتكِفَ فِي مِحرابِه ؛ لِتبَصَّر هذه المسالك النَّظميّة الّتي جعلتْ هذا الأسلوب أو التّركيب قادرًا على أنْ يأنسَ به كثيرٌ من المقاماتِ والسياقاتِ بخلافِ الّذي يقال لك، وهذا لا يَرِدُ إلّا فِي مقامٍ كذا أَوْ سياقٍ كذا.
وبهذا نحن بحاجةٍ إلى رَصدِ التّراكيبِ الّتي لَدَيْها قدرةٌ على ورودِها في مساقاتٍ عدَّةٍ مُتنوّعةٍ ، والتَّراكيب المخصوصة بسياقٍ مُعيّن ، ثُمّ نناظِرُ بيْن الضّربيْن، وهذا عملٌ جليلُ النّفعِ ، وهُو يكونُ – أيضًا - فِي المفرداتِ، كما يكونُ في التّراكيب.
ولا تحسبنّ أن قول الرّماني:« وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير » من قبيل" تخصيص الثبوت: التخصيص الحصري : فهو يثبته في القرآن ، ولا يثبته في السنةِ ، كلّا هو من قبيل " تخصيص الإثبات : التخصيص بالذكر ، الذي لا يترتب عليه نفي الحكم عمَّا عدا المذكور، وهو لما كانت رسالة «النّكت» معقودةً للقول في إعجاز القرآن كان قوله " في القرآن" أنيسًا بسياق القول. وبيان النبوي فيه كثيرٌ نضير. وقد أشرتُ قبل إلى ما في قوله صلّى الله وسلّم عَليْهِ وعَلى آلِه وصَحبِه:« أوتيت جوامع الكلم».

.....

ومنْ هذا ما رواه النَّسائِيّ في كتاب" التّطبيق" من سننه بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بن مسعود] ﷺ قَالَ : كُنَّا لاَ نَدْرِى مَا نَقُولُ إِذَا صَلَّيْنَا ، فَعَلَّمَنَا نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَقَالَ لَنَا :« قُولُوا التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِىُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ».

قول ابن مسعود ﷺ :« َعَلَّمَنَا نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ» على الرغم مما ترى من بسطة العبارة، إنما هو منظور فيه إلى ما يقتضيه المقام من البسط، لا من حيثُ "أصل المعنى" فأصل المعنى يقتضي ما دون ذلك من العبارة، لكن الأمر هنا قاضٍ بمراعاة حال القام ، فهو مقامُ ثناءِ على الله ﷻ وأقرار بالإيمان . وهذا كلُّ ما يقال فيه دون الوفاءِ بحقّهِ.

ولأبي الحسن البقاعيّ(ت: ٨٨٥هـ) رسالة في « أسرار التشهد » قرأتها عام ١عام ١٤٠٨هـ مخطوطة وقد نشرت محققةً ، فحرًى أن يكون لك بها استبصارٌ يعينك على أن تستحضر في صَلاتك استحضار معاني هذا الذكر الكريم المحتتح بالثناء على الله ﷻ، والختتم بالصلاة والسلام على سَيّدنا رَسُول اللهِ ﷺ وما بينهما من الدعاء والإقرار بوحدانية الله ﷻ وبرسالة سَيّدنا رَسُول اللهِ ﷺ ، فتكون في صلاتك عاقلًا ما تعمل قولًا،وفعلا ، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها كما جاء في بيان النّبوّة.

روى أحمد في مسنده بسنده عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِى بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ عَمَّاراً صَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ يَا أَبَا الْيَقْظَانِ لاَ أَرَاكَ إِلاَّ قَدْ خَفَّفْتَهُمَا. قَالَ هَلْ نَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئاً قَالَ لاَ وَلَكِنْ خَفَّفْتَهُمَا. قَالَ إِنِّى بَادَرْتُ بِهِمَا السَّهْوَ إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :« إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّى وَلَعَلَّهُ أَنْ لاَ يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلاَتِهِ إِلاَّ عُشْرُهَا أَوْ تُسْعُهَا أَوْ ثُمُنُهَا أَوْ سُبُعُهَا ». حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ.

.....

وعبارة سيّدنا ابن مسعود - رَضيَ اللهُ عَنْهُ – : « فَعَلَّمَنَا نَبِىُّ اللَّهِ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ »لى أنه يذهبُ إلى أن "جوامع الكلم: هي بيان سَيّدنا رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ وسّلم عَليْه وعَلى آلِه وصَحبه .وهذا ماأذهبُ إليْهِ،وعبارة" جوامع الكلم" أصلها" الكلم الجوامع" وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، أدل علىتمكن الصفة من الموصوف ، فقد استحالت الصفة من كونها تابعة في قولنا" الكلم الجوامع" غلى كونها مضافًا ،غضيف غليها الموضوف، والمضاف إليهخ أشبه بالتابع ، فاستحالت الصفةمن كونها تابعة إلى كونها متبوعة،وفي هذا العدول من المبالغة في تمكن الصفة في الموصوف ، فخاصية جمع دقائق المعاني ولطائفها،وقريبها وبعيدها متحققة في هذه الكلم. وأنتبهذا تدركأن قولهم" جوامع الكلم" أغنى بالمعنى من قولهم" الكلم الجوامع" مما يهديكإلىأن" الكلم الجوامع "من قبيل إيجاز القصر.

[منـاظرة قولِ العرب :"القتلُ أنفى للقتل" بقول الله تعالى:«وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حياةٌ »
وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم:" القتلُ أنفَى للقتل " وبيْنه وبيْن لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز (٢١)

---

٢١) يهدِي الرّمانيّ إلى أن المناظرةً بيْن مأأثرَ عن العربِ مِن قَولِهم :" القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ: بقَولِ اللهِ ﷻ :«وَلكُمْ فِي القِصَاصِ حياةٌ » أمرٌ قد سبقَ إليه أهلُ العلمِ لما رأوه من قول الله ﷻ ما ليس فيه منه في ما أثر من مقالةِ العرب.، فأدركوا بما هم مالكوه من حسن التفكر والتذوق ،وملكاتهما وأدواتهما ممّا بين المأثور والجملة القرآنية من تفاوت في البلاغة والإيجاز. كما يقُول الرماني .
" المناظرة" أمرٌ موروثٌ ، ولا يُقال إن الناظرة بيْن شيئين ليسا من بابٍ واحدٍ ليس امرًا حكيمًا ولاسيما المناظرة بيْن قولٍ بشريّ،وقولٍ إلهي، فما بيْن قولِ البشر وقول الله ﷻ هوما بيْن البشر والحقّﷻ
الحق أن " المناظرة" لا " الموازنة" بيْن بيان البشر، وبيان الوحي يكون حميدًا إذا قصد إلى أمرَيْن كليين:
الأوّل : الإبانة عمّا كانت عَليْه العربُ في إحكام قولهم، وأنّهم وفق طاقاتهم كانوا أهل اعتناء واتقانٍ، وأنّهم يرون في إتقانهم بيانهم ما يميزهم عن غيرهم من أجناسِ البشر، وهذا الذي يميزهم إنّما هوامرٌ منْ ذواتهم لا من خارجهم ، أمرٌ متعلق بقدرتهم على «التّفكر»و«التّذوق» فلا يكون البيانُ فريدًا في سموّه عن سائر أنواع البيانات الأخر إلا إذا كان وليد«تَفَكُّرٍ » عميقٍ مُحيطٍ حكيم، و«تذوقٍ» لطيفٍ شفيفٍ متغورٍ
ومن كان هذا شأنه كان في"الآدميّة" أعرقَ وأملك ، وتلك هي التي يجبُ أن تكون بها المفاضلة بين أنواع البشر: "الكمال في الآدمية" بكلّ ماتحمله هذه الكلمة «الآدمية» من نبلٍ وسموٍ وشرفٍ تليدٍ
والآخر : الإبانةُ عن أنّ ما جاء بِه القرآنُ لا سبيلَ إلى أن يحومَ أحدٌ من الخلقِ حولَ حمِى بلاغتِه وتكاثرِ معانيه في كلّ فؤادٍ مؤمنٍ به رشيدٍ مستبصرٍ متدبّرٍ مليكٍ لأدواتِ ومهاراتِ وخبراتِ التبصُّرِ والتّدبرِ الأمثلِ .
وعن أنّ البيانَ القرآنيَّ ليس معجزًا في أن يؤتَى بمثلِ سورةٍ منه ، كلَا، بلْ هُو مُعجزٌ مُبْلِسٌ أن يُحيط العالمون أجمعون بما فِي آية بل جملةٍ منْ جملِه في سياقِها منْ معانيِ الهدَى والرّحمةِ والموعظةِ ، والبُشرَى والشِّفاءِ ،وكيف أنَّ فيها لكلِّ درجةٍ من درجاتِ المُؤمنين به مِن العطاءِ ما يتصاعدُ بهم إلى الدرجةِ الأعلَى فِي مقاماتِ القربِ الأقدسِ.
وعدلُ المُناظرة لا " الموازنة" قاضٍ بأن يستفرغَ المُناظِرُ بيْن البَيانَين كلّ جهودِه وَعُلومِه وَطاقاته في حُسن اسْتبصار ما في هذا البيان البشريّ المرادِ مناظرته ببيان الوحي، بِحَيْثُ لا يَدَعَ فَضيلةً فِيه إلّا أبرزَها ووضَعَها الموضِعَ اللائقَ بها، ففي ذلِك عظيمُ نصيحةٍ لكتابِ

....

[إجمال وجوهُ التَّفاوتِ بيْن بلاغة المأثور عن العربِ والجملة القرآنية]

وذلك يظهر من أربعة أوجه:

- إنه أكثر في الفائدة
- وأوجز في العبارة
- وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة
- وأحسن تأليفًا بالحروف المتلائمة. (٢٢)

الله ﷻ ولطلابِ العلمِ بِه. وفِي هذا - أيْضًا - خدمةٌ للبيانِ الإبداعيّ البشريّ شعرًا ونثرًا أدبيًّا. وفي الوقتِ نفسِه نصيحةٌ لـ« علم البلاغة العربيّ» وأهلِه وطالبيه.

---

٢٢) جعلُ الرّمّاني وجوه التفاوتِ أربعةً ، ليس من قبيل الحصر، بلْ ذلك بيان لأظهرها وأقربها إدراكًا على جلالها ، فهو فهو يخصُّها بالذكر لا بالحكم ، وما كان له، ولا لغيرِه أن يخصّها بالحكم . فخصائص البلاغة في الجملة القرآنية تُعجِزُ المستبصرين عن حصرها، بحيثُ لا يكون لأحدٍ من بعدهم أن يأتوا بغيرِها.

لا يقُولها من هومؤمن بأن القرآن كلمةُ الله ﷻ

ذكر الرُّمانِي الوجوه على الإجمال، ثم عمَد بعدُ إلى تبيينها، وهذا نهجٌ جامعٌ أمريْن كليين:

الأوّل : أن في الذكر إجمالًا ثم تفصيلًا تمكينٌ لها في الفؤاد الرّشيد ، ذلك أنّها تَرِدُ إليْه في صورتيْن :

صورة مجملة يتمكن بها من الإحاطة بها فما كان مجملا كانت الأحاطة به أسرع وأمكن.

وصُورة مفصلة تملأ الفؤاد بعطاياها

والآخر : أنَّ فِي الإجمالِ إغراءً بأن يُمارِسَ المُتلقّي قبل وُرودِ التّفصيل تفصيله بنفسِه، ثمَّ إذا ما ورد التَّفصيلُ ناظره بما كان منه ؛ ليعلمَ مواضِعَ الاتفاقِ والاختلافِ، فيكونَ له في ذلك دُربةً علَى تفصيلِ المُجمَل تفصيلًا محيطًا قدرَ الطَّاقةِ، وهذا أمرٌ يمارسُه النُّبلاء من طلاب العلم في بناءِ شخصيتهم العلمية .

هم حَريصون على الوقوفِ على قدر ملكاتهم، وقياسِها ؛ ليتمكنوا مِن الوعي بما ينقصُهم ،وبأسباب النقصان وبكيفية الاتقاء . ذلك شأن النبلاء لا يحملون إلى مجمل مفصل إلى معرفة تفصيله من قبل أن يمارسوا هم بأنفسِهم لأنفسهم تفصيله،ومقايسته بما يأتي من تفصيله بعدُ إذا ما قرأ قولَ سَيّدنا رَسُول اللهِ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه «كُلّكمْ راعٍ وكلّكمْ مسْؤولٌ عَن رعيتِه » يتوقف هنا، ثم يمارس تفصيل ذلك،ويتسقه ، ثم يناظره بما جاء به بيانُ النبوة بعد، ويعنى بنفس التفصيلات وتواليها، ومنهج الترتيبي بيْنها،وحكمته،وهكذا تكون تربية طالبِ العلمِ نفسِه إن

•••••

[تفصيل الوجوه الأربعة]

[الوجه الأوّل]

أما الكثرة في الفائدة فيه ففيه كل ما في قولهم: القتل أنفى للقتل وزيادة معان حسنة ، منها :

إبانة العدل لذكره القصاص

ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة

ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به([٢٣])

كان عليّ الهمة يأبى ألّا أن يكون عند الله تعالى من ورثة الأنبياءِ ،وظنّي أنّك تُحب أن تكون، فالزم.

•••••••

٢٣) أبان الرّمَانيّ أن الجملةَ القرآنية فيها ما في " المأثور عن العرب" وزيادة معانٍ حسنةٍ ذكر منها:

إبانة العدل لذكره "القصاص " يريد أن الإعراب بكلمة" القصاص" تتضمن معنى العدل، فلا يكونُ قصاصًا إلا إذا كان عدلًا، لأنه إذا ما زاد أو نقص، فلن يتحقق فيها المعنى الوضعي ،والشرعي للقصاص، فالمعنى اللغوي يقضي بالمطابقة.

يقُول ابن منظور في معجم لسان العرب « وَيُقَالُ: قَصَصْت الشَّيْءَ إِذا تتبّعْت أَثره شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ؛ أَي اتّبِعي أَثَرَه، » فالقصاص تتبع الاعتداء دوزن زيادةٍ أو نقصان .

وهذا " العدل" ليس في عبارة العرب ما يدل عليْه، فالقتل جزاء قد يكون غير عديلِ القتل اعتداء، فليست صور القتل سواء .فمن القتل ما يصحبه هوانُ المقتول.كما هو الشائع في زماننا . من التقطيع والإحراق والإذابة ،ونحو ذلك، والقصاص يوجب أن يكون القتلُ جزاء عديل القتل اعتداءً ـ فلو قتل، وأهان ، لا بد أن يكون للإهانة جزاؤها. ولا يكتفى بمجرد القتل. فلا تدخل عقوبة الإهانة في عقوبة القتل.

ومن الفوائد الزائدة في "الجملة القرآنية" التي ذكرها الرّماني « إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة » جعله القصاص ظرفًا للحياة،وتنكيرها تعظيمًا ما يهديإلىأنّفي القصاص ردع لمن تحدثه نفسُه أن يعتدِي، فإذا ما علمك أنه إن فعل قتل، كف عما تحدثه نفسه، فيكونُ في هذا حفظٌ لحياتِه هو أوّلا،ولحياة منكان يريد قتله، فيعمّ السلام الاجتمعي، الذي ر استَقيم الخياة بدونِه،وهو ما يحرص أعداء هذه الأمة ألا يكون فيها، فهم حريصون على التحريض بين أبنائها سواء كانوا حكامًا أومحكومين، فلا يستشعر كثيرلٌ منأبناء الأمة اليوم أنه آمنٌ في سربه،ولا في طريقه،ولا في ليله أو نهاره،ولا في وحدته ،ولا بين أهلِه. كل لحظة هو متوقع أنيُعتدىعليْه ممن واجبهمأن يكون له حجمايةً وحصنًا أو من غيرهم. فماامتن الله تعالى على قريش في سورة«قريش» :« الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » مما يَكاد لا يستَشْعرُه غيرُ قليلٍ من هذه الأمّة في زماننا .

••••••

[الوجه الثاني]"الإيجاز في العبارة القرآنية"

يقُول: « أمَّا الإيجاز في العبارة فإنَّ الذي هو نظير "القتلُ أنفى للقتل" قوله ﷻ: « القصاص حياة» ، الأول أربعة عشر حرفا ، والثاني عشرة أحرف([٢٤])

••••••••••

[الوجه الثالث]«البعد عن الكلفة بالتكرار »

ولو أن «القصاص» تحقق في الأمة في كل مناحي الحياةِ لتحقق السلام الاجحتماعي لآبنائها.

ومما ذكره الرّمانِيّمن الفوائد الزائدة على ما في " المأثور عن العرب" «الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به » وهذه من الرّماني بالغة الدقة، يريد أن الجملة القرآنية جاءت في سياقٍ يحقق لمن يقرأ الجملة فيه أن يسارع إلى الاستمساك بما تضمنته من الحكم الإلهي رغبة في ما في هذا الحكم للمة من الخير العميم المقيم،ورهبة من أن تبتلى ألمة بالتفاني إن هي أعرضات عن الأخذ بالقصاص أخذًا تسليم وتشوف وتشرّف، لا أخذ مقهورٍعليْه ، فإن الاستسلام لأحكام الشريعة عن غيرِ رضوان بها ويقين بأنها الرحمة الحقة ، لا يقبل من المستسلم،ولا يكون له من استسْلامه هذا ما ينفعه عند ربّه ﷻ

يقُول الحق ﷻ: «فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً »(النساء: ٦٥)

ومن البين أن حسن الاستدعاء للخضوع رهبة ورغبة للقصاص يزداد في فؤاد المرء إذا ما تبصر الجملة القرآنية في سياقها.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يَا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) » (البقرة)

[٢٤]) هذا الوجه عندي هو أضعف الوجوه الأربعة التي ذكرها الرّماني، فزيادة أربعة أحرفٍ لا يعدُّ ممَّا يستعلى بِه قولٌ على قولٍ، فالإيجاز ليس قلةأحرف فحسبُ ،والفوائد التي ذكرها من قبل ذلك الوجه ليست من هذا الوجه، فهو لا علاقة له بالمفاضلة المعنوية التي هنا الأصلُ في المفاضلَةِ

ولو لأتَّ الرّماني ذهب إلى أن عبارة العرب لتحقيق المقصد منها تحتاج إلى تقدير صفة للقتل أولا وصفة للقتل ثانيا، فيقال: القتل جزاءً أنفى للقتب اعتداءً لكان هذا هو ألولى في هذا الوجه. ومن البين أن ما لايحتاج إلى تقدير ليفهم المعنى أولى مما يحتاج إلى تقدير.

••••

يقول:وأما بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن قولهم: القتل أنفى للقتل تكريرا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة عن أعلى طبقة» (٢٥)

••••••

[الوجه الرابع:]

وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ. فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام (٢٦)

---

٢٥) لمّا كانت عبارة العرب بنيتْ على تكرار كلمة " القتل" جعل هذا التكرار غير منتج فضيلةً ،وهذا يقدح في قدرها بلاغة، فالتكرار نفسه ليس غيبًا، بل قد يكونُ فضيلةًإذ اقتضَاه المقامُ وكان منه فائدة معنوية

والعلماء ليسوا سواء في تحرير مفهوم التكرار، فمنهم من يذهب إلى أن تكرار لفظ الكلمة دون اتفاقٍ تام في المعنى لا يعد تكرارًا ، فإذا ما كان ثم فرقٌ بيْن معنى الكلمتين، فلا تكرار، كما تراه فيما سُمي بـ«الجناس» :« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» (الروم:٥٥)

وكلمتا "القتل" في مأثر عن العرب، ليْستا في المعنى سواء، فالأولى بمعنى" الجزاء" والآخرى بمعنى الاعتداء ، فبينهما من حيثُ المعنى طبالٌ، ومن حيث اللفظ "جناي" و" رد عجزٍ على صدر" وكلاهما محسن لفظي، ففي عبارة العرب ثلاثُ محسنات بديعية لايمكن أن يقالإنها متكلفة. فإعادة كلمة" القتل" في هذه العبارة ليس مسْتقبحًا عندي، فهذا الوجه ضعيف أيضًا

٢٦) في هذا الوجه اعتمد فيه " الرّمانِيّ" على خصيصة"التلاؤم" الثوتي ،والتلاؤم عنده هو الباب الرابع من وجوه البلاغة العشرة. وهذا التلاؤم عنده " تعديل الحُروف"نقيض" التنافر" الصوتي . و"التلاؤم" الصوتي في القرآن عنده في الطبقة العليا في القرآن كله أي أنه القرآن ليس فيه كلمةٌ تنافرت أصواتها،

وهذا التلاؤم مدركٌ بالحس،وموجود في اللفظ، أي أنه أمرٌ موضوعي .

وهو في بيانه ما بين عباراة العرب،والجملة القرآنية من تلاؤم يعمد إلى مواقِع أصوات مكونات الكلمة وأثرها في تحقيق التلاؤم وما دونه،

يذهبُ إلى أنه في عبارة العرب يكون خروجٌ الخروج من اللام في" القتا" لإلى" الهمزَة" في" أنفى" ثقيل ، لبعد مخرج اللام من مخرج الهمزة، فاللام " من طرف اللسان،والهمزة من أقصى الحلق، بينا الحروح من الفاء في" في" إلى اللام في القصاص" أعدل لقترب مخرجيهما، فاللام من طرف اللسان،والفاء من الشفة،

••••••
فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغًا حسنا. (٢٧)

والخروج من" الصاد" في القصاص" إلى "الحاء" في" الحيلاة"أ في الجملة القرآنية عدل من الخروج من الألفا في"أنفى"| إلى" اللام في" القتل"

وهو يقُول في " باب التلاؤم":« السبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما. وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال ، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال.

والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة ».(النكت في إعجاز القرآن.ص:٩٦)

هذا الوجه عند ليس بالقويّ ، فالحس لا يستشعر ثقلًا في قولهم" القتل أنفى للقتل"

(ولمزيد منمناقشة هذه الوجه راجع إن شئت ماكتبه أد عبد زايد في بحث" أبو الحسن الرماني وجهوده في بلاغة القرآن الكريم. ص:(٥٣٧ وما بعدها) (مجلة كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – القاهرة – العدد العشرون – ١٤٢٢هـ)

والرماني في مناظرته مامأثر عن العرب من قولهم" القتل أنفى للقتل" بالجملة القرآنية«وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حياةٌ»لم يستوف كل ما فيالآية من الخصائص البلاغية المائزة، فذلكفوق طاقته وطاقةالبشر، فليس حكيمًا القول بأنه قد مضَى في تفصيل هذه الأوجه " بما لا يدعُ مزيدًا من القول حول الآية الكريمة ،وعلو قدرها في هذا الباب، فعنه أخذ اللاحقون ،ولم يضيفوا شيئًا"(رؤية جديدة للإيجاز والإطناب. ص:٥١) ذلك يناقضه واقع حال أهل العلم من بعده ، من جهة، ولو نظرت إلى ما جاء به الرافعي في مقالاته" "كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة" لعلمت أن الرافعي قد أتى بما هو زائد على ما أتى بِه الرّمانيّ.

ويناقض أيضًا واقعَ البيان القرآني، فليس ثم ما يمكن لعالم أو جمع أن يقواوا فيه ما لا يدع مزيدًا من القول فيه، فمن وجوه بلاغة القرآن أنه لاسبيل إلى واحد أو جماعة إلى أن يقول في آية أو جملة في سياقها قولًا لا مزيدَ عليه، هو معجز في باب استفراغ معانيه والإتيان عليها استنباطا كمثل إعجازه في أن يأتوا بسورة من مثله. سواء بسواء.

•••••

٢٧) يذهبُ الرّمّانيّ إلى أن هذه الوجوه الأربعة مجتمعة هي المحققة التفوق للجملة القرآنية، وإن كانت العبارة العربيةأيضاً بليغة،ولكن بلاغتها مندون بلاغة "الجملة القرآنية" .

•••••

(عوامل ظهورالإعجاز في بيان القرآن)

«وظهورُ الإعجاز في الوجوه الّتي بيّنتها يكونُ باجتماعِ أمورٍ يظهرُ بها للنّفسِ أنَّ الكلام من البلاغةِ في أعلَى طبقةٍ ، وإن كان قد يتلبس فيما قلَّ بما حسن جدا لإيجازه وحسن رونقه وعذوبة لفظه ، وصحة معناه.

كقول علي رضي الله عنه: " قيمةُ كلِّ امْرئ ما يُحْسِنُ". فهذا كلامٌ عجيبٌ يُغنِي ظهورُ حسنِه عَن وصفِه »

فمثلُ هذه الشذرات لا يظهرُ بها حكم [أي حكم إعجاز ، لا حكم بلاغةٍ] ، فإذا انتظم الكلامُ حتى يكونَ كأقصرِ سورةٍ أوْ أطولِ آيةٍ ظهرَ حكمُ الإعجاز ، كما وقع التَّحدّي في قوله تعالى: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) (البقرة : ٢٣) ،فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن (٢٨)

ومما يحسن التذكير به أن واحدًا في زماننا من أولئك الذين كرهوا ما أنزل الله تعالى كتب يومًا أن قول العرب" القتل أنفى للقتل" أبلغ من « ولَكُمْ فِي القصاص حياة » فاستثار الأستاذ أبو فهر محمود محمد شاكر " استاذه "مصطفى صادق الرافعي" -رضي الله عنه- أن ينقض مقالة ذلك الضليل فقال له:" في عنقك أمانة المسلمين جميعًا، لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها"؟ فما كان من الرافعي إلا أن كتب مقالات تحت عنوان"كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة" أبن فيها عن وجوه من السمو البياني في الجملة القرآنية. وهي مجموعة في آخر كتابه" وحي القلم" وذكر فيها الرسالة التي بعثها إليه محمود شاكر، فكانت السبب في أن رقن هذه المقالات الجليلة القدر، فحق عليك لنفسِك أولًا أن تفيء إلى كتابه هذا وأن تقرأ هذه المقلات فإن فيها ما لايرغب عنه عاقلٌ.

---

٢٨) هذا مِن أبي الحسن بالغُ النّفعِ ففرقٌ بيْن أن يكونَ الكلامُ بليغًا ، وأن يكونَ معجزًا البلاغةُ قد تظهر فِي جملةٍ وجملتين ، تمَّ بهما المقصدُ ، أمَّا الإعجاز الّذي هو مِن خواصِ بيان الوحي ، فلا يظهر أسلوب واحد أو أسلوبيْن أو جملة أو جملتين [خرج سياقهما السّوريّ]، بل هو مُتحقّق باجتماع جمل أو آيات في سياق سورةٍ ، فإذا قطع عن سياقها كان بليغا ، وأن لم يكن معجِزًا، وقطعُه عن سياقِه يعنى ألّا يلتفتَ إلى السياق في تلقي هذا البيان أما اعتبار السّياق في الفهم، فهذا يعني أنَّك مستحضِرٌ السّياقَ القريبَ والمديدَ فِي جنانِك ، وإن كان غير منطوقٍ به ، فاحْتضَارُه في الجنانِ يجعلُه قائمًا في تحقيقِ العلم بشيْءٍ من الإعجاز، وعلى هذا لا يقال إن جملة « وَلَكُم فِي القِصاصِ حَياةٌ » وهُي مقطوعةٌ عن سياقِها القريبِ سِباقًا ولِحاقًا وعَن سِياقها المَديدِ الّذِي يَبدأُ بطليعة اِلسّورةِ ، ويَمْتدّ إلى آخرِها. جملة قرآنية معجزة،وإن تكن جملةُ بليغةٌ .

وهذا يُوجِبُ على دارسِ إعجازِ البلاغةِ القرآنيّة ألّا يتدّبر جملةً أوْ آيةً إلّا في سِياقِها ، وكلّما امتدّتْ ملاحظةُ السّياقِ فِي التّدبُّر كان ذلكَ أَعونَ على أن تُبصِرَ مِن دقائقِ المَعنى القُرآني ولطائفه أكثرَ وأطرفَ.

ومِن ثَمَّ عُنِي علماءُ بلاغةِ القرآنِ بِمدارسةِ السّياقِ السُّورِيّ، بلْ بسِياقِ القرآنِ كلّه، فأجْرِيت دراساتٌ موسّعةٌ مُعَمقَةٌ فِي بابِ تناسب بناء السّورة القرآنيّةِ ، وفي بابِ تناسبِ السُّور القرآنيّة كلّها بدءًا من"أمّ الكتاب" إلى سورة" الناس" وقد كان لأبي الحسن برهان الدين البقاعيّ(ت: ٨٨٥هـ) في تفسيرِه الفريدِ" نظمِ الدّرر في تناسُبِ الآياتِ والسّور" القدح العلّي في هذا وهذه المدارساتُ ما لا سبيلَ لك أن تجدَ لها نظيرًا في غير الدراسات البلاغية للقرآن الكريم.

فحقٌ عليك وأنت تدرسُ "معقدًا: فصلًا" في سورة أن تستحضرَ سياق السورة كلها، وما بُنيت عليه السّورة ومنهاجَ بنائِها التَّركيبيّ وعلاقته بمقصودها الأعظمِ .

وإذا أردتَ أن تدرُس "سورةً" ،فحقيقٌ عليك أن تدرسَها في سياق حزبها ، والقرآن أربعة أحزابٍ ،وعلاقتها بالسور سباقها،والسورِ لِحاقِها، بلْ في سياقِ القرآنِ كلّه،. فلمعاني كل سورة نظائر في سور أخرى صرّف البيان عنهااقتضاء للسياق والمغزى السُّوريّ لِها. وهذا ما لا يكون في أي بيانٍ سِوَى بيان الوحي.

وهذا بابٌ وسيعٌ نتكاثرة قضاياه ومسائله ، كلّما مضيتَ في قضيةٍ تولَّدت منها قضيةٌ ، وهكذا تجدُك بحاجةٍ أن تمضِي ، ولا تلتفتَ إلى غير ما أنت فيه مِن هذا التَّدبّر الّذي يُشعِرك بعظيمِ فضلِ الله ﷻ عليك أنْ جعلَك من ذرية بني آدم عليه السلام ، وأن جعلك مسلِما ، وأن جعلك ناطقًا بالعربية، وأن جعلك من طلاب العلم بكتابه ، كلُّ ذلك يجعلك لا تَعتَزّ بشيْءٍ كمثل اعتزازِك بهذه العطاءات الربّانية الّتي أشرتُ إليها من نعماء ربك ﷻ .

حقٌ مبينٌ مقالَةُ سيّدنا عبدِ الله بنِ عَمرو بن العاص - رَضيَ اللهُ عَنْهُما – : «مَنْ أُوتِيَ الْقُرآنَ ، فظنّ أن غيرَه قَد أوتِيَ خيرًا منه ، فقد حقّرَ ما عظم الله تعالى »

أبقِي بعدَ هذه المقالةَ الحقّ ما يجعلك تمُد عينيك إلى ما في أيدي غيرك من أهل الدنيا ؟

« لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِين » (الحجر:٨٨)

« وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (طه:١٣١)

والرّمّاني كان حكيمًا في استحضار مقالة أمير المؤمنين سَيّدنا عليّ بن أبي طالبؓ ، فهذه المقالة جعل الله ﷻ فيها أنواعًا من الفرادة أدناها فرادة" إيجاز القصر"

مقالة سَيّنا عليّ ؓ إذا أنت استحضرتها في جميع ما أنت مقدمٌ عليْه أو قائمٌ فيه، وتبصرتها كان لك منهاعصمة من أن لا تَرْضَى بسفاسف الأمور، وكان لك فيها حافزٌ فتي على أن تكون عليّ الهمة. فقيمتك فيما أنت تحسن. فإذا أردت أن تعرف قيمة أحدٍ فلا تسأله عن نسبه، وما ملكتْ يديه من الدنيا. سلْه عمَّا يُحسن من الأعمال، فإن رأيتَ أنَّه يُحسِن أمرًا من أمورِ الدُّنيا الّتي لا تنفَع في الآخرة، فانفض يدك منه ، واجعل أصابعك في أذنيك واستغش ثيابك، فإن في لُقيَا مثله داءً لا تطيقه.

يحصل له بالغرض المطلوب » ([٢٩])

كان موفقًا أبو الحسن الرُّمّانِيّ في استحضاره هنا مقالة سَيّنا عليّ ﷺ فلتكن أنتَ موفقًا في استحضارها في مسيرك .
وابو الحسن في قوله:« فإذا انتظمَ الكلامُ حتى يكونَ كأقصر سورةٍ أو أطول آيةٍ ظهر حكم الإعجاز ، كما وقع التحدي في قوله تعالى: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) (البقرة : ٢٣) ،فبان الإعجازُ عند ظهورِ مقدارِ السورةِ من القرآن» مشيرٌ إلى أنّ "الإعجاز" يظهر لك متدبرًا بناء سورة،وإن كانت أقصر سورة، أو أطول آية كآية" المداينة" وهذا يهدي إلى أن هذا معنى ليس في ما دونه، وهذا لايكون هو النظمُ الذي هو توحي معاني النحو فيما بيْن الكلِم وفق الأغراض ،فذلكقد يتحقق في جملة كمثل مقالة سَيّنا عليّ ﷺ ألانف ذكرها، فهذه بليغة بلاغة قل أن تجد نظيرها في بيان البشر، ولكنها ليست بالمعجزة، فليس ثَمما يمنع أن يكون مثلها،واجود منها .
الأعجاز غير متوقف على النظم الآنف ذكره وحده، ثم ما هو أعظم ،اجل، حقًا النظم الذي ذكره عبد القاهر هو عمود أمر البلاغة ، لكطنه ليس هووحده الذي يتحقق بِه الإعجاز.
علينا أن نفرق بيْن عمود أمر البلاغة ، وعمود أمر الإعجاز :
عمود أمر الإعجاز متحقق في بنية السورة ،ولعله يكون متمثلًا في أن لكل سورة مقصُودًا هو الذي تربط به كل كلمة من السورة، خاضعة لسلطانه ، فالنظم وحده عمود أمر البلاغة.
والنظم والمقصود الأعظم معًا عمود أمر الإعجاز ، لعله يكون كذلك ،على أن في"الإعجاز" أمرًا آخر مرتبط بخصائص المعنى ، وأوله حضُور جلالِ الألوهيّة ، وجمال الرّبوبيّة في كلّ معنًى من معاني القرآن ،علَى تنوّع مستويات الظهور، فحينا يكون" جلال الألوهية أظهر"كما في«إيّاك نعبدُ» وحينًا يكون جمال الرّبوبية أظهر ،كما في«إيّاك نَسْتعين » ، وهما في الحالين حاضرًان حضورًا قويمًا مقيما.

---

٢٩) يَعمَد أبو الحسن إلى تبْيين المفارقاتِ الدّلاليّةِ بيْن المُصطلحات : "الإيجاز والتَّقصير" والإطناب والتّطويل" و"الإيجاز والإطناب"
أبان أن "الإيجاز" بلاغة لأمرٍ يرجع إلى حقيقتِه الاصطلاحية من جهةٍ، ولآمرٍ يرجعُ إلى اقتضاء المقام . هو بلاغة من أنّه تقليل الكلم تكثيرًا للمعنى، وهذا وحده غير كاف لتحقيق نعته بأنه بليغ، بل لا بُدّ مِن أمرٍ جوهرِي : "اقتضاء المقام له"
الأشياء وأن تكن في نفسها كميلة، إلّا أنها قد لا تكونُ نفيعة إذا أقيمت في غير مقامها :
الرّحمةُ والشَّجاعةُ والكرمُ أمورٌ في نفسها كميلة، لكنها إذا جعلت في غير موضِعها لا تكونُ جميلة .

و"التّقصيرُ" عِيٌّ لذاتِه ، ذلك أنَّ "التَّقصير" تقليل الكلم مع إخلالٍ بالمعنى، فهو نفسِه عِيٌّ ، ولا يكونُ مقامٌ مقتضيًا "التَّقصير". فهُو عِيّ لِذاتِه ، لا لغيرِه. بيْنا الإيجاز إذا لم يقتضِه المقام كان عِيًا لعيره.

وكذلك" الإطناب" الّذي هو تفصيل المعنى وما يتعلق به ، فهو لا يضيف إِلى متن المعنى ووعموده جديدًا، بل هو نثرُ ما هو مكنوز في متن المعنى وعموده .

هذا التّفصيلُ في نفسِه كميل، فإذا اقتضاه المقام،وهو «المواضع التي يحسن فيها ذكر التّفصيل » كما يقُولُ الرمّانيّ ، كان جميلا " بليغًا" فإن لم يقتَضِه كان عِيًّا لغيره أي لأمر خارجٍ عنْه.

و" التّطويل" في نفسِه عِيٌّ ذلك أنّه كما يقُول "الرّماني":" تكلُّف فيه الكثير فيما يكفِي منه القليل" وهو يضرب مثلًا من الواقع يفرق به بيْن" الإطناب" والتطويل" مثلًا يمارِسُها أكثرنا.

"التّطويل" أن تسلك طريقًا بعيدا جهلا منه بالطريق القريب ، فسلوكك هذا الطريق إنما حمل عليْه الجهل بالطرقِ إلى مقصِدك، وليس لأمرٍ آخر اعتبرته، بينا" الإطناب" أن تسلك الطريقَ الطويل نفسَه إلى مقصدك لا جهلًا بالططرق بل لأمر تريد تحقيقه بسلوكك هذا الطريق، فأنت محمول إلى أن تسلكك، فكنت بسلوكه محسنًا. هذا الذينمارسُه في جياتنا هو الذي يكون في ممارستنا في بياننا ،والرمان في هذا التّقريب" حكيم.

وعلى هذا يتحقق لك أن«الإيجازَ» قد يكون بلاغة حينًا، ويكون هو هو عيًا ،وكذلك «الإطناب»، أمَّا التّقصيرُ والتّطويلُ ، فلا يكونان بلاغةً أبدًا ، بل هما دائمًا عيٌّ.

ومن ثَمَّ لا يقال" الإيجاز" بلاغةٌ إلّا إذا كان مُعتبرًا فِي القولِ "اقتضاء المقام " أو يجعل من يكون مقهوم هذا المصطلح" الإيجاز" ثلاثة أمورٍ متلازمة لا تنفك أبدًا ، وإلا لا يكون مجازًا.

هذه الثلاثة الأشياء : (أ)تقليلُ الكلم (ب)والقصدُ إلى تكثير المعنى في فؤاد السميعِ الرّشيد المستبصر (ت) واقتضاء المقام

هذه هي أركان مفهوم"الإيجاز" وحينذاك يكون قولنا" الإيجاز بلاغة" حكيمًا.

وكذلك "الإطناب" يكون مفهومُه من ركنيين : (أ) تفصيل المعنى وما يتعلق به وهذا التفصيل لا يضيف جديدًا في أصل المعنى ومتنه ، كالذي تراه في حديث :«كلكم راعٍ» (ب)واقتضاء المقام.

فإذا استحضرنا هذين في قولنا : "الإطناب بلاغة" كان قولنا حكيمًا

أمَّا التّقصير والتطويل، فلا يكونان إلا عيًّا.

كذلك تحرّر مفاهيم المصطلحات، فلتكن في وعيك حاضرة فاعلة. وليكن لك من صنيع ابي الحسن في هذا ما تتخذُه منهاجًا في التّحرير والتّقريب ، فمثل الرُّمَّانيّ نتعلمُ منه حقائقَ المعلومات، ونتعلمُ منه منهج، التفكير،ونتعلم من منهج التعبير، فبيانُه تحتاجُ إلى أن تمارسَ فيه هذه الثَّلاثة : تحصيل المعرفة ،وفقه منهاج التفكير، فقه منهاج التعبير، وهذا ما يجعل قراءتك قراءة احترافية ذات أثر في بناء شخصيتك العلمية فهمًا وإفهامًا.

الحَلْقةُ الثَّانِيةُ
مِن تَثوير باب الإيجازِ
فِي « رسالة النكت» في إعجاز القرآنِ للرُّمانيّ
بقلم
مَحمُود تَوفِيق مُحمّد سَعد

[ما بين الإيجاز والإطناب]

يقول أبو الحسن الرمانيّ
« والإيجازُ بلاغةٌ والتَّقصيرُ عِييٌّ ،كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيي والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه وليس كذلك التقصير ؛ لأنَّه لا بدَّ فيه من الإخلال.
فأمّا الإطناب فإنّما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل
فإن لكلّ واحد من الإيجاز والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر لأن الحاجة إليه أشد والاهتمام به أعظم
فأما التطويل فعيب ، وعي ، لأنّه تكلّف فيه الكثير فيما يكفِي منه القليل ، فكان كالسّالك طريقًا بعيدًا جهلا منه بالطَّريق القريب.
وأمّا الإطناب ، فليس كذلك ؛ لأنّه كمن سلك طريقًا بعيدا لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحمل في الطَّريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب. » (٢٩)

---

٢٩) يعمدُ الرّمانيُّ إلى تبيين المفارقات الدّلالية بيْن المصطلحات : الإيجاز والتّقصير، والإطنابُ والتطويل ، والإيجاز والإطناب

هذه فروق بين متقابلات ثلاثةٍ ، حرًى أن يَكون ما بينها من مفارقةٍ دَلالية اصطلاحية حاضرة في عقلك ، وأنت تتلقى البيان البليغ. وتحرير الفروق الدلالية الاصطلاحية بين المصطلحات من العلم بمكانٍ عليّ ؛ ذلك أنَّ لغة العلم لغة اصطلاحية .

أبان عن أن الإيجاز بلاغة لأمرٍ يرجعُ إلى حقيقته الاصطلاحية من جهةٍ،ولأمرِ يرجعُ إلى اقتضاءِ المقامِ .

هو بلاغة من أنه تقليلُ الكلم ليتكاثر المعنى في فؤاد السّامع (التكاثر إنما يكون بحسن التّبصر والتّدبر في صورة المعنى في سياقِه)

وهذا وحده غير كافٍ لتحقيق نعته بأنه «بليغ» لا بُدّ من اشتراط اقتضاء المقام الإعراب به ، فالبلاغة إنّما هي عمود الأمر فيها ملاحظة ما يقتضيهِ المقام والوفاء

بحقه ، فليس ثَمّ شيْءٌ جميل لذاته، أو قبيح لذاته، بل الأمر مردّهُ إلى اقتضاء المقام له.

ويقابل تقليل الكلامِ لتاكثر المعنى تقليل الكلام مع الإخلال بالمراد، وهذا هو التّقصير، فالتّقصير تقليل الكلام مع الجور على المعنى، والإيجاز تقليل الكلام مع الوفاء بحق المعنى ولذا كان التقصير عِيّا ، فليس تقليل الكلام بلاغة في ذاته بل هو بلاغة إذا تحقق معه أمران :

- أن يكون مترتبًا عليه تكاثر المعنى في فؤاد المتلقّي المتشدبر المستبصر
- وان يكون ذلك مما اقتضاه المقام

والتقصير مع أنه تقليل الكلام إلا أنه قد فقد الشرطين السّابقين.

والفرقُ بين «الإطنابُ والتطويل » أنَّ الإطناب أن يَكون منطوق صورة المعنى أبسطَ من المعنى نفسه ، سوا ء قلنا المعنى هنا هو " متعارف أوساط الناس" أي "أصل المعنى "كما عند الساكي ومن لفّ لفه

أو قلنا المعنى ما تولد من أصل المعنى بطريق الدلالة، لا الإفادة

أو قلنا المعنى هنا ما تولد من أصل المعنى بأي طريق: طريق الدلالة أو طريق الإفادة ، فيدخل فيه ما يسمى ب"مستبعات التركيب " ، وهو ما عليه العلامة "دراز" - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –في سفره الفريد "النبإ العظيم" فإذا كان المعنى أقل من صورته، واقتضى المقام ذلك فهو بلاغة

وهذا ما أنت تجده في غير قليلٍ من أحاديث سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم –ومن ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقُولُ « أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ الَّذِى عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِىَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

ذلك الحديث إن قست صورة المعنى على مذهب السكاكي وشيعته كان إطنابًا ، وإن قست صورة المعنى على مذهب من نظر إلى أن المعنى هو معنى المعنى أو هو ومستتبعات التراكيب، فالحديث " إيجاز" ويكون كلّ بيان سيّدنا رسُول الله - صلّى اللهُ عَليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسلّم – إيجازًا.

******

[تقسيم آخر للإيجاز من جهة بناء العبارة على مفصل وعدم بنائها عليه]

يقول الرمانيّ:« والإيجاز على وجهين:

أحدهما إظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة .

والآخر إحضار المعنى بأقل ما يمكن من العبارة .

والوجه الأول يكون كثيرا في العلوم القياسية ، وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة لأنها تكون حينئذ دالة ومغنية عن التعلق بها في نفسها ، لتعلق النكتة بها ، فهذا الضرب من الإيجاز لا يكون إلا بعد أحوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة مغنية

ويمكن أن نعدّه إيجار لا بقياس صورة المعنى بالمعنى ومعنى والمعنى ومستتبعات التراكيب بل نقيسُ صورة المعنى بما يتسع له العرض من البيان :

الغرض وهو تقرير فريضة التّكافل الاجتماعي والتّعاون على البر والتّقوى يتسع لأكثر من هذا تفصيلا .

الإطناب لا يضيف إلى أصل المعنى بل هو تفصيل له ،وتثويرٌ لمكنونه

والتطويل بسط العبارة عن المعنى دون أن يفيد المعنى شيئًا، فهو تكلّف الكثير فيما يغني عنه القليلِ

ويمثل له الرُّمانيّ بأن تسلك إلى بلدك طريقًا طويلا ،وعندك طريق أقصر إليه، وليس لك حاجةٌ إلى سلوك الطريق الطويل ، فيكون اختيارك الطريق الطويل تطويل عليك .

المقصد من السفر هو الذي يختار لك الأوجب الأحمد، وكذلك البيان غرضك هو الذي يختار لك الإطناب أو الإيجاز .

وبهذا يتبيّن لك الفرق بين الإطناب والإيجاز كما تبين لك الفرق بين الإيجاز والتقصير، والإطناب والتطويل.

(جُمُعةُ القول) : ليس في بلاغة البيان أسلوب هو البليغ لذاته في كل مقامٍ وسِياق، بل هو في سياقٍ بليغ وفي سياقٍ عيٌّ . وهذا يستوجبُ عليك مُبيناً مفهمًا أوْ متلقيًا فاهمًا مراعاةوالسياق المقالي والمقامي. فلست حرًا طليقًا في فهمك أو إفهامك.

وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جارا لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما. » (٣٠)

---

[٣٠]) أبو الحسن الرّماني في هذا التقسيم نظر إلى ما تبني عليْهِ العبارة الوجيزةُ ، فهي حينًا تبني على قول يشرح المعنى ، فتأتي العبارةُ الوجيزة مظهرةً النكتةَ التي في ما سبقَ شرحها، فهي كـ " الفذلكة" التي تأتي عقب التفصبل .

يقولُ أبو الحسنِ : هذا الوجه الأوّلُ يأتي كثيرًا في العلومِ القياسية ؛ وذلك أنه إذا فهِمَ شرح الجملة كُفي بعد ذلك حفظ النكتةِ إلّا أنها تكونُ دالة ومغنية عن التّعلقِ بها في نفسِها ، لتعلقِ النكتةِ بِها، أيْ أنَّ ما كان من شرح بُنيت عليه الجملة الوجيزةُ يمكنُ الاستغناءُ عنه ؛ لتحققه في الجملة الوجيزة التي جاءت عقبه ، وهي لا تأتي فريدةً بلْ تُسبق بشرحٍ ، ثُمّ تقومُ هي من بعدُ لِتغني عمّا سبقها ، فيكفي تذكرها لِتعلق النكتةِ التي كانت مبثوثة في الشرح قبلها بها

وهذا الضرب يذهب إليه في العلومِ القياسية لا في البيان الأدبي .

ويعلق أد عبد زايد رحمه الله تعالى (ت: ١٤٤٥هـ) على هذا الوجه بقوله: «لا أدري ما علاقةُ الوجه الأولِ بالبلاغةِ ،ونحن الآن في الإيجاز البلاغي؟

إن الرماني نفسَه يقرر أن النوعَ الأول يكثر في العلومِ القياسية وما دام كذلك فأولى به أن يكون بعيدًا عن البحثِ البلاغيّ ،لأن هذا اللون من الإيجاز يتعلقُ بالقوانين والقواعد العامةِ في العلوم القياسية . ويشملُ التعريفات وربما لا أكونُ مبالغًا إذا قلتُ يشملُ المعادلات الرياضيةِ ،وقوانين العلوم الطبيعية والكيميائية والفلكية وما جرى مجراها ...

وأنا – أي أد عبده زايد - أعتقدُ أن الذي جعل الرُّمانيّ إلى ذلك هو أنّه رجلُ ذو باعٍ طويلٍ في عديدٍ من العلومِ القباسية ،ولم يستطع أن يتخلصّ منها ،وهو يدخلُ مجالًا لاعلاقةَ له بتلكَ العلوم»(أهـ)

[مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة- جامعة الأزهر- العدد(٢٠) عام : ١٤٢٢هـ]

أمَّا الوجه الآخر في هذا التقسيم المتمثل في" أحضار المعنى بأقلَ ما يُمكنُ من العبارة" فمعناه أن المتكلم يُحضر معناه في فؤاد المستمع بصورة وافية به هي أقلّ ما يُمكنُ عدد كلمٍ من الصور التي تُحضره وتقيمه قيومًا في فؤاد المستمعِ.

ويحسن بك أن تلتفتَ حين تسمعُ قوله«إحضار المعنى» إلى قوله في تعريفِ البلاغةِ بأنها«إيصال المعنى إلى القلب» والإيصال هو مبدأ التمكين ،ولذا التفت إلى التمكين أبو هلالِ العسكري (ت:٣٩٥هـ)فقال :" لتمكنه في قلبه لتمكنه في قلبك" والعسكري حفي بالأخذ عن الرماني (٣٨٦هـ) .وهما عَصْرِيَّان.

****

[وجوه الإيجاز]

يقول الرماني: « والإيجاز على ثلاثة أوجه:

- الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد
- وإيجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب
- وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبل ، لأن المستقبل ثقيل على النفس ، فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقرب من الآخر كقولك: تحرك حركة سريعة - في موضع أسرع .

وقد يكتنف الغرض شعب كثيرة كالتشبيب قبل المديح ، وكالصفات لما يعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد ،وإذا ظهرت الفائدة بما يستحسن فهو إيجاز لخفته على النّفس. » (٣١)

وهذا الوجه إذا نظرت إليه في سياقِ الوجهِ الأول تبين لك أنّه يريدُ أنك تبدأُ بهذا الإحضار(الإيصال) من غير أن يسبقَ شرح الجملةِ كما في الوجه الأول ، فهذا الوجه الثاني استئنافُ قولٍ مسْتحضرٍ للمعنى في فواد المستمعِ الرشيد لصُورةٍ ليس يُمكنُ أن تكون صُورةٌ أقل منها عدد كلم في هذا السياق ، فهي إذن الصورة التي استجمعت حسن الدلالة على المعنى،وتمامها وإحكامها(تبرجها).

وهذا يعني أن هذا المعنَى القائم في صدرِ المتكلمِ يُمكنُ إيرادهُ في صورٍ عدةٍ تتفاوت في تفصيل الإبانةِ عنه، والمتكلّم مقتدرٌ على إيراده في صور عديدةٍ وافية متفاوتة عدد كلم إلا أنّه يختار الصّورة المثلَى ،ويصنع فيها ، فيستدرك بها جمالا بيانًا ، فأمره قامٌ على الاختيار ،والصنعةِ في ما اختار مستدركًا بهما : الاختيار والصنعة جمالا يُقري به الأسماع والأفئدة.

هذا التقسيمُ بوجهيهِ تجاوزه شيْخنا،ولم يتفت إليه في سفره الكريم «الإعجاز البلاغي» إيماء منه إلى أنّ الأولَى ألا يكون أبو الحسنِ فد عرض له من أنه ليس من " الإيجاز البلاغي" الذي هو باب من أبواب البلاغة العشرة للبلاغةِ التي هو وجه من وجوه الإعجاز السبعة عند الرمانيّ .

وشيخنا- أعزه الله تعالى في الدارين – يعلمنا بصمته منهجا في الحكم على الإشياء، فأنت حينا تكون غير ناطقٍ أبلغ منك ناطقًا إذ يقضي المقام السكوت، وهذا من بلاغة السكوت. وهو باب عالٍ من أبوابِ الأدب في مناقدة أهل العلم .

وهو شيخنا - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ – كثيرًا ما يعلمنا بلاغة الأعمال مع بلاغة الاقوال، فاحرص على أن تحمل عنه ذلك في مجلسك بين يديه أو من أسفاره المسْفرة عن الحق والخير والجلالِ والجمال.

٣١) الإيجاز عند الرماني من جهةِ الطريقِ المسلُوك إليْهِ ثَلاثة أضربٍ:

(**الضرب الأول**) ماكان السبيلُ فيه إلى المعنى هو الأقربُ ،وهذا يعني أنه ذهبُ إلى أن المعنى يُمكنُ أن يؤدى بطرائقَ عدةٍ ، وأن المتكلّم يكونُ مقتدرًا عليها جميعًا ،وأنه يختار واحدًا منها وفق مقتضيات تَحمُلهُ علَى ذلك ، فهو ليس بحرّ في أن يختار، بل هو مطيعٌ اقتضاءات المقام واستحقاقاته التي هو بها عليمٌ ، ولها مطيعُ وعلى إنفاذ ما تقضِي به قديرٌ، فإذا اقتضى الحال، ومنها حال المعنى وحال المخاطب وحال المتكلمِ اختيارَ أقربِ طريقٍ كان ضرورةً أن يسلكه ، وإلا كان عيًّا : عيّ مطابقة ، لا عِيّ قولٍ.

وهذا ما يجعلُ الإعراب عن المعنى بطريقِ الإيجازِ لا يطيقه إلا نِطاسِيٌ خريتٌ أحوزِيّ .

ومن عوامل إعانةِ المُبينِ علَى أن يُحسن اختيار الطريقِ الأقربِ إذا اقتضى المقامُ سلوكه أن يكونَ بصرُهُ بالمعنَى حديدًا حكيمًا محيطًا عليمًا بخصُوصيته ،وحين إذنْ يَجدُ المُبينُ من هذا المعنى عونًا له على حسن اختيارِ السبيلِ إليْهِ ، فالإحسانُ إلى المعني في صنعته في الفؤادِ يُقابله إحسانٌ من المعنَى فِي إعانةِ المُبينِ علَى البصرِ بالطريقِ الأليق بِه.

ولعلّك تقُولُ : كيفَ تقولُ إنّ المعنى يمكنُ أن يُؤدّى بطُرقٍ مختلفةٍ ، وأنت تعلمُ أنَّ كلّ تغبيرٍ في الصُّورةِ يجعلُ معناها غيرَ معنى الصورة الأخرى ، فليس للمعنى إلّا صورة واحدةٌ ، فَإذا أحدث فيها أدنَى تغيير أدّى إلى تغييرٍ في المعنى؟

حقًا تقولُ . لكنَّ المعنى الذي نتكلّمُ عنه ليس هو الذي به تفاضل عن سائرِ ما يكونُ منه بسبيلٍ إذا تعددت الصُّورُ ، فإنها لا محالة تلتقِي في مسَاحةٍ وسيعةٍ ،وما بينها من فروقٍ لا تكونُ أوَّلا في أصل المعنى ومتنهِ . يكون في حواشيه التي هي منه ، وهي التي يتفاضلُ بها قولٌ على قولٍ .

قولك : محمدٌ كالأسد، وإنّ محمدًا كالأسد ، وكأنّ محمدًا أسدٌ ، ومحمّدٌ أسدٌ ، ورأيتُ أسدًا يَخطبُ ، ورأيتُ محمدًا يزأرُ ، هي صورٌ متلاقيةٌ في مساحةٍ واسعةٍ من المعنى ، وما تلتقِي فيه هو " أصل المعنى ومتنه" وما تتفاضلُ بينها بلاغةً ليس قلة عدد حروفِها الباسطة المعنَى في الفؤاد فحسبُ ، بل تلك مع اقتضاء المقامِ لها، فحينَ نذهبُ إلى القولِ بالتصريف البياني للمعنى ، وإيراده في صُورٍ متعددةٍ لا نذهبُ إلى أنها ستكونُ جميعًا متساوية في كلِّ مستوياتِ المعنى ، والقرآن الكريمُ نصَّ علَى أنّه يصرفُ القولَ فِي المعاني.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا} [الإسراء:٤١]

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا} [الإسراء:٨٩]

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً} [الكهف:٥٤]

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} [طه:١١٣]

فما يقعُ عليهِ تنوع الصور هو طبقةٌ من طبقاتِ المعنى تلتقِي عليْهِ الصُّور، ثُمَّ تنفردُ كلُّ صورةٍ بِما يزِيدُ على ما فِي الأُخرَى.وهذا الذي تنفرد به كل صورة هو مناط عناية العقل البلاغي تأويلًا وتوجيهًا ومناقدةً .

وهذه الصُّورُ بعضُها أقلُّ عددَ كلمٍ معَ الوفاءِ بحقّ المعنَى في كلٍّ ، فإذا ناظرنا بيْن هذه الصُّورِ، فإنَّا نَهدُفُ إلى العرفان بالاقتضاءِ فِي كلٍّ بمعالمِ المطابقةِ فِي كلٍّ، ولسْنا نناظرُ بيْن حضُورِ البلاغةِ وغيابها، فجميعها بليغٌ ، وفي الذروة منها ما كان في بيان الوحي قرآنًا وسنةً ، فإن كان في غيرِهِ كان هنالك تفاوتٌ فِي مستوياتِ المطابقةِ «البلاغة» فكان بعضها أبلغَ " مطابقة" من بعضٍ .

فرْقٌ بيْن المناظرةِ بيْن الصور المتنوعةِ للمعنى الواحد في بيان الوحي قُرآنًا وسُنةً منهاجًا ومناطًا ومقصدًا ، والمناظرة بيْن الصُّور المتنوعةِ للمعنى الواحد فِي بيان الإبداعِ البشري شعرًا ونثرًا :

التقاوت في الصّور المتنوعة عن المعنى الواحد في بيان الوحي ليس تفاوتًا في المطابقة، فهي في جميعها على كمالها ، وإنما هو تفاوت في عطاءات البيان من المعنى بحسب اقتضاءات المقام واستحقاقاته ومستويات الظهور لا الحضور.

كلّ صوتٍ حرفًا أو حركة في عالم البيان البليغ يؤدي عملا ، ويكون حضوره فعيلا، ولا سيما في بيان الوحي، فلتكن أنت إنسانًا كذلك .

ما خلق الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – إنسانًا ليكونَ غير فعيلٍ في مجتمعه، أو يكونُ حضُوره كغيابِه .

لتكنْ في قومك حرفًا أو كلمةٍ في البيان البليغ ، ولا سيما البيان العليّ المعجز المبلس ، لا يُستغنى عنك بغيرك في مقامك ،ولا سيتبدل بك غيرك ،ولا تدفع عن مقامك تقديمًا أو تأخيرًا

****

الضرب الثاني : الإيجاز باعتماد الغرضِ دون ما تشعبَ منه.

يفسره الرُّماني بأنه قد يكتنف الغرضَ شعبٌ كثيرةٌ كالتشبيبِ قبلَ المديحِ ،وكالصفاتِ لما يعترض الكلام ممَّا ليس عليه الاعتمادُ.

يجعل الرّمانيّ من سبيل ايجاز أن يُدخل المبينُ في غرضِهِ من غير أن يّيم من بين يدي الموضوع ما يمهد إليْهِ من مقدمات ليستْ من الغرضِ في شيءٍ

والفرقُ بيْن هذا الضربِ ،والذي قبله أن هذا سلوك طريق هو أقرب إلى الغرضِ من جهةِ اقتحامِ المقصد مباشرة متحليًا عن المقدمات والتشعيباتِ.

والأول سلوك طريق أقرب، وإن كان بين يدي الغرضِ ما يمهدُ ،وإن تشعبت شعبٌ فهو وجازة في العبارةِ

والثاني وجازة في الغرضِ كما يقول أد عبده زايد.

وليس يخفى أن الرّمانيّ ليس بحاجةٍ إلى أن ينصّ على اشتراط اقتضاء المقام ، فهذا بات – في العرفِ البلاغي – شرطًا لازما لازبا، فهو كالطهارة الكبرى والصغرى للصلاةِ ، فهذا متضمنٌ اشتراط تحقيقِ الطهارتينِ ، فلا يُقال عن شَيْءٍ إنه من البلاغة إلا وهذا الشرطُ : اقتضاء المقام ومطابقته البيان له متحقق فيه.

وأنت تلحظ أن الغالبَ على سور القرآن ،ولا سيما سور حزب" السبع الطول" و"المثين" أن يكون بين الغرضِ الرئيس " متن القول" مقدمة محققٌ فيها "براعة الاستهلال" يهدي إلى مقصود السورة الآعظم.

ويغلب أن تشتمل السورة على تشعباتٍ من الغرضِ الرئيس هي من مقتضيات استيفاء البيان عن المقصود . وقد تمتد المقدمة في بعضِ السورِ بما يعادل عدّة سور من حزب" المفصل" كالذي تراه في مقدمة سورة البقرة ، فهي عشرون آيةٍ .

وقد تكون المقدمةُ جملةً واحدة كما في سورة" المائدة" : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ)[المائدة:١]

ومن السور ما ليس له مقدمة ،بلْ جاء البيان فيها مقتحمًا الغرض كما في سورة" الأنفال" و" التوبة" و" النور" و"محمّد"و" الفتح" و" الحجرات" و"المنافقون" و"التحريم" .

والدرسُ البلاغيّ فريضةٌ عليه أن يُبين عن ذلك ، وليس أحدُ السبيليْن أفضل مطابقة من الآخر ، فكلٌّ في الذروة من المطابقة المعجزة.

يقول شيخنا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :" وهذا الضربُ من الإيجاز قسمٌ حذِرٌ ؛لأن المقدمات التي تهيّءُ النفوس لقبول المعنى قد يكونُ بعضُها كالأغراضِ ، فيفسد الكلامُ بحذفِه، والموضوعات الجانبية التي تتخلّل الأغراض قد يكونُ بعضها لازمًا في إقامةِ عمودِ المعنى ،وبناء هيئته ،فلا مناصَ للمتكلّمِ من أن يكونَ ذا بصرٍ بما هو ضروريٌّ ، فيحفظه، وبما يُمكنُ أن يقُومِ الكلامُ بدونه ، فيحذفه" (الإعجاز البلاغي. لشيخنا مكتبة وهبة. ص:٩٤)

******

(الضرب الثالث : الإيجاز بإظهار الفائدة بما يحسنُ دون ما يستقبح ؛ لأنّ المستقبح ثقيلٌ على النفس)

هذا الذي جعله الرمانيُّ قسيمًا لسابقيه قائمٌ كم أمرٍ ليس بآحذ بما هو عمود "الإيجاز" : "**قلة الكلم تكثيرًا للمعنى في فؤاد السامع**" بل هو أمرٌ عامٌ يُحقق تكثير المعنى في فؤاد المستمع المتبصر المتدبر سواءً كان الكلام قليل الكلمِ أو بسيطًا، فأنت البصيرُ بأن تكثير المعنى وتكاثره واتساعه في فؤاد السّميع المتدبر ليس بمقصورٍ على«الإيجاز» بلْ ذلك متحققٌ بعدة عوامل كثيرة متنوعةٍ . فهو حقيقٌ أن يكونَ مقومًا من مقوماتِ كلّ بيانٍ بليغٍ ، فإظهارُ الفائدةِ من البيانِ في نفسِ المستمعِ الرشيدِ بما هو مستحسن عنده أمرٌ عامٌ .

أو ليس الرمانيّ قد جعل البلاغة" أيصال المعنى إلى القلبِ في أحسن صورةٍ من اللفظ" وهذا عامٌّ كل أساليبِ البلاغةِ ،ومنها" الإيجاز"

نعم لمّا كانَ "الإيجازُ" أكثرَ أساليب البلاغةِ حضورًا في أساليب البلاغةِ كان هذا أكثر حضورًا فيه لكنه ليس مختصًا به ، ممّا يجعله ضربًا منه . فتخصيصه بالذكر هنا ليس على سبيل **التخصيص بالثبوت** ، بل من قبيل **التخصيص بالإثبات** على ما تعرفُ الفرقَ بيْنهما.

يقُول شيخنا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :«وهذا الضربُ من"الإيجاز" لايتعلّقُ بالألفاظ قلةً وكثرةً ،وإنما يتعلّقُ بموقعِ الكلامِ في النفسِ ، وإحساسها بِهِ خِفّةً وثِقلا ،وإقبالا وإهراضًا وتَعاطفًا أو ازورارًا.

الأساليبُ المتعثرةُ المستكرهة ليست من"الإيجاز" وإن قلت ألفاظها،؛ لأنها ثقيلةٌ متراخية تمسُّ النَّفسَ مسًّا كريهًا بطيئًا.

والأساليب الصّافيةُ العذبةُ من"الإيجاز" وإن كانتْ ألفاظها أكثر من الأولى.

ليس هذا الوجهُ الذي لا يلتفتُ إلى كم الألفاظِ خارجا عن "الإيجاز" الذي هو الاقتصادُ في استعمال الكلمات ؛ لأن حسن الأسلوبِ وخفّته على النّفسِ لا يتوفرُ له إلا إذا كان نقيًّا من الأخلاطِ غير مترهلٍ و لا ممدود .

وهذا "الإيجازُ" ناظرٌ إلى الإيجاز اللغويّ ؛ لأنَّ الملاحةَ والعذوبةَ صِفاتُ يخفّ بها الكلام على القلوبِ ،ويلجُ في مستودعه من الصدر»[الإعجاز البلاغي لشيخنا. ص:٩٥)

وهذا يعني أنه وإن كان أمرًا عامًا كل بيان بليغ، فهو في اسلوبِ" الإيجاز" أولى حضورًا لدقة هذا الأسلوب وحاجته إلى مزيدٍ من اللقانة إفهامًا وفهمًا.

[عُلوّ الإيجاز في القرآن على غيره من الإيجاز في سائر البيان]

يقول ابو الحسن:« وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه. وتأملت ما جاء في القرآن منه ، عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان » ([٣٤])

ويذهب أد عبد زليد رحمه الله تعالى إلى أن الرّمانيّ لو جعل هذا الوجهَ الثّالثَ من هذا التقسيمِ شرطًا للإيجازِ كلّهِ لكانَ أحسن من أن يجعله زجهًا مستقلا بنفسِهِ [مجلة اللغة العربية بالقاهرة. مرجع سابق . ص:٥٤٤]

****

[٣٤]) يقرر أبو الحسنِ أمريْن كليينِ :

الأوّل: متعلقٌ بموقع الإيجاز من سائر الأساليب

والآخر: متعلقٌ بموقعِ إيجاز القرآن من الإيجاز في سائر البيانات.

أما الأولُ فيذهبُ إلى أن" الإيجاز" الذي يقتضيهِ الحالُ في أيّ بيانٍ بليغٍ هو الأعلى والمقدم على سائرِ الأساليب المقتضيها أيضًا الحالُ، لا من حيثُ الاقتضاء والمطابقة ، بل من حيثُ جهتيْن رئيستيْن:
الأولى من حيثُ عطاءاته من جهةٍ

والأخرى: من حيثُ حضوره في غيرهِ ،فهو من حيثُ العطاءاتِ لايكادُ غيرُهُ من الأساليب يعطسُ بغباره في هذا . هو من أكثرِ الأساليبِ سِخاءً وتثويرًا للمعاني في الأفئدة الرشيدة المستبصرة، كلما زدته تبصرًا وتدبرًا في سياقاته تواقد عليْك من عطاءاته ما لم تكن تتوقعُ مما يجعلك لا تملّ الاستبصار، فإنّه لايَمَل عطاء حتَّى تمل تدبرًا ، وكلّما جددت أدوات استبصارك وتدبرك أفاض عليك من عطاءاته اللطيفة الطريفةِ .

ولعلّ من وجوهِ قولهم:«البلاغة الإيجاز» أنّ«الإيجاز» هو أكثر الأساليب استحقاقًا لبلاغة التّلقي ، فكما أنَّه بحاجةٍ إلمُبين المبدعِ وافر الملكاتِ والمهاراتِ والأدواتِ ليتمكن من إبداعهِ إفهامًا لما هو مكنوزٌ في فؤاده الصّناع كذلك هو بحاجةٍ إلى متلقٍ سميعٍ رشيدٍ مليك مهارات وخبراتٍ وأدواتٍ يتمكنُ بها من حسن استنباطِ وتثوير ما هو متكنز في هذا البيان الوجيز المكتنز فيوضًا من دقيقِ المعاني ولطيفها وطريفها.

وأمّا الاخر : المتعلقُ بموقعِ إيجاز القرآن من الإيجاز في سائرِ البيانات ، فإنّك لا تجدُ من له بصرٌ بفنون البيان ، وإن كان غير مسلمٍ يُمكنُ أن يزعمَ – إلا استكبارًا– أن الإيجاز في القرآن في غيره من البيان ما هو عديله.

[تحليص القول في الباب] ([٣٣])

[المحور الأول:
تنوع الأعراب عن حقيقة الإيجاز عند الرماني]

- **والإيجاز تُهذيبُ الكلام بما يحسن به البيان**
- **والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن**
- **والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ**
- **والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ([٣٤])**

وهذه الحقيقةُ إذا ما أريد استقراء مواضع الإيجاز في القرآن – ولو على مذهب السكاكيّ – ومناظرته بمواقع الإيجاز في بيان العربِ في عصر ما قبلَ التنزيل وفي أيّ عصر بعده كان افتقارٌ إلى وقتٍ جدّ مديد ، وجهودٍ لجمهرة أهل العلمِ جد فتيةٍ ، ثم لا ينتهي بهم الأمر إلى العجز المطبق عن الوفاء بحقّ نزيرٍ من هذه المناظرة سواء كان الإيجاز إيجاز حذفٍ أو إيجاز قِصَرٍ.

وشيْخنا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يعلقُ على قولِ الرّمانيّ : « وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه...» قائلا :« وهو بهذا يفتحُ بابًا من البحثِ أعضلَ وَامْلأَ مِمَّا قالَ ؛ لأنه يعني دراسةَ ما جاء على الإيجاز في سائر كرمِ أهلِ الطبعِ الذين نزل القرآن فيهم ، ثُمَّ تأملْ سَائرَ ما جاءَ منه في القرآن ، وهذا بابٌ واسع جدًا ومليءٌ بالغوامضِ ودراسته عند شَاعرٍ واحدٍ غايةٌ لا تقاربها إلا بطولِ الكدّ والمواصلة»[الإعجاز البلاغي. لشيخنا. ص:٩٧-٩٨]

[٣٣]) في ختامِ القول في باب«الإيجاز» عاد الرماني إلى تخليصِ ما بسطه في الأوراقِ السابقة ،وجعل ذلك في ثلاثة محاور:

الأول الإعراب عن حقيقته

والثاني الشرط الرئيس في المناظرة بين الإيجاز والإطناب

والثالث : اعتبار الإيجاز بما يقتضيه لا باعتبار عدد كلمه.

ودونك تفصيل كل محور:

[٣٤]) هذا **المحور** الأول منصرفٌ إلى تصريفِ البيان عن حقيقة" الإيجاز" : صرفه في أربع عبارات كلّ عبارة تنظر إلى جانبٍ من جوانب حقيقة النجاز:

<u>**الجهة الأولى**</u>: استهلّ الإعراب بالنظر في ما يُحققُ للكلامِ في النفسِ المستقبلتِهِ حسنًا و إحسانًا يبعثُ فيها نشاطًا بِه تتمكّن من حسن الانتفاعِ والإمتاعِ فيكون ذلك أعونَ على أستناط وفيرٍ من مكنوزه فقال: « والإيجاز تهذيبُ الكلام بما

يحسن به البيان » هذه العبارة هي نفسها صورة من صور الإيجاز ؛ لأنَّها بالتَّدبر فيها ، ولا سيَّما قوله " تهذيب" و قوله"يحسن"

هاتان الكلمتان بتدبرهما يتسع المعنى في فؤادك الرشيد:

قوله :"تهذيب الكلام" يفيد معنى التَّنقية والتّخليص والإصلاح التَّهْذيبُ كالتَّنْقِيةِ هَذَبَ الشيءَ يَهْذِبُه هَذْباً وهَذَّبه نَقَّاه وأَخْلصه والمُهَذَّبُ من الأشياء الحسية والمعنوية النَّقِيُّة من العُيوب ورجل مُهَذَّبٌ أي مُطَهَّرُ الأَخْلاقِ وأصلُ التهذيبِ تَنْقِيةُ الحَنْظَل من شَحْمِهِ ومُعالجَةُ حَبِّه حتى تَذْهَبَ مَرارَتُه ويَطيبَ لآكله .. والإهذابُ والتَّهذيبُ الإسراعُ في الطَّيَران والعَدْو والكلام(لسان العرب . بتصرف)

وهو تهذيب في طور التصوير، وليس بعده ، فالكلام من بعد التّصنع في المعنى تصورًا في الفؤاد يخرجه مهذبا،لا أنه يخرجه أولا غير مهذب ،ثم ينقحه، بل هو يلد مهذبا، وهذا لا يكون إلا من لَسِنٍ حكيم .

وقوبه«يحسن به الكلام» تقرأ قوله «يحسن» بفتح تاء المضارع من حسن يَحسن أي صار حسنًا في نفسِه، ويمكن أن تضبط "ياء" المضارع بالضم من الإحسان أيْ هو يُحسن إلى المعنى بتمكنه واتساعه وانتشاره في الفؤاد ويُحسن إلى المتلقي بإعانته على أن تذهب فؤاده الرشيد مذاهب متسعة ، وكلها مجيد حميد ، فالأسلوب الوجيز يجعل المتلقي مستقرقًا في استبصاره وتأويله ، كلما اجتنى منه تراءى لها ما هو أمجد وأحمد، فمضى إليه نشطًا مسرورًا. ومثل هذا من أجل نعوتِ الكلام العليّ . فضبط الفعل بضم ياء المضارع يتضمن ضبطه بفتح الياء لأن لا يُحسن لشيءٍ إلا إذا كان في نفسِه حسنًا، ففاقد الشّيْءٍ لا يُعطيه، فقولنا (يُحسن) بضم "الياء" أوجز من قولنا" يَحسُن" بفتح "الياء"، فهو أثرى معنى وأكرم وأسمحُ به.

<u>والجهة الثانية:</u>« الإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن » جهة تخليص مما يُمكنُ أن يصيبها من الكدر فتنفر النفسُ عنها ، وهذا مرجعه إلى اختيار الكلم اختيارًا يجعل الفؤاد بها أنيسًا ، وبها متمتعًا فمرجع هذا إلى حسن اهياء مكونات الكلم ، ولو أن الرّمانيّ قدم هذا الوجه غلى الذي قبله لكان أفضل،ذلك انه ينظر رإلى مكونات الكلام،والّذي قبله ناظر في نظمِه .وإقامته في سيق يثور ما فيه.

<u>والجهة الثالثة</u>: «الإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ»

تنظرُ إلى جهةِ مقدارِ ما يُعربُ به عن المعاني الوفيرة . أن تكونَ غيرَ مكلفة المتلقي السميع الرشيد وقتًا وجهدًا في التلقّي ؛ ليتفرغ للإستنباط والتثوير

(والمحور الثاني) :

« الشّرط الرئيس في المناظرة بين الإيجاز والإطناب»

يذهبُ في هذا إلى أنَّ«الإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد ،وذلك ظاهرٌ في جملة "العدد" وتفصيله ،كقول القائل : لي عندَه خمسةٌ وثلاثة وعشرة في موضع " عشرة"» (٣٥)

فالاقتصاد في العبارة يُفضِي إلى الاقتصارِ في الجهدِ الملذولب في سماعِها ؛ ليتوفر الحددُ للفهم والاستنباط والتثوير.

<u>والجهة الرابعة</u>:« والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير» ينظرإلى غفاعليةِ إظهار المعنى الكثير باللفظِ القليلِ ،وهذا قريبٌ من سابقهِ ، فهو بهذا ملخصٌ حقيقة المجاز ،وما يحققه في البيانِ ،وما يترتبُ على ذلك.

[٣٥]) هو في هذا ملتزمٌ بأصول المناظرة بيْن صورتين عن المعنى الواحد أيّا كان حجمهما من الجملة إلى النص اتفاقًا في ما يتكلم فيه ،فلا تستقيم المناظرة إيجازًا وإطنابًا بين" جملة: تعربُ عن أمرٍ في غيرِ ما تعربُ عنه الصورة الأخرى المراد مناظرتها بها .

هو هنا مشترطٌ وحدةَ سياقِ القول«وحدة الموضوع» فالجملةُ بجملة في سياق " النكاح" مثلًا ذلك أن الاتفاق في موضوعِ القول سيحقّقُ بين الجملتين مساحة التقاء لا يتحقق منهُ شَيءٍ إذا ما اختلف موضوعُ القولِ، وهذا يُفهمُ منهُ أنَّ طبيعة موضوعِ القولِ لها تأثيرٌ في الإعرابِ عن المعنى إيجازًا وإطنابًا .

وتمثيله بالعشرة وتفصيلها؛ ليبين لك أن لكلِّ موضعًا يحسُنُ فيه : قد يقتضي المقام هذا التفصيل ،كأن يقتضي أن العشرة التي لك عليه لم تكن جملة واحدة بل كانت خمسًا ثم ثلاثة ثم اثنين أي على أقساط في أوقاتٍ واحوالٍ ومقتضياتٍ متعددة ،وأنك لم تمنحه مرة وانقطعت عنه على الرغم من أنه لم يقض " الخمسة" السابقة، بل أنظرته، وأعطيته " ثلاثة" ثم استأنفت العطاء بعدُ فأعطيته اثنين، وهذا يلفت إلى كريم معاملتك له، واتساع صدرك،ورأفتك،وإحسان ظنك، بينما قولك" عشرة" لا يفي بتصوير ذلك الخلق الحميد فلكلٍّ من الإجمال والتفصيل مقامٌ .

وأنت ترى هذا جليًا في قول الله تعالى:(وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ <u>فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ</u> ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [البقرة:١٩٦]

ولأهل العلم مقالاتٌ متنوعةٌ في التأويلِ والتوجيهِ بعضُها فوق بعضٍ يحسن بك مراجعتها في مظانها،ولاسيما في كتاب"أحكام القرآن"

قوله تعالى :« فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ » اقتضَى المقام التفصيل ثم الإجمال، فقوله" كاملة" جعلت " قوله " تلك عشرة" ذات إضافة اقتضاهل المقام، فلو قال : تلك عشرة" دون نعتها بقوله" كاملة" لما كان في هذا القول ما جاء في ما عليْهِ " النظم" فمناط العنية ليس قوله" عشرة" بل مناط القول قوله" كاملة"

ولو قال تلك عشرة " تامة" لما كان كمثل ما جاء عليه النظم في تمام الدلالة على المراد، التام ، ليس كمثل:" الكمال: الكمال هو ما لا يقبل الزيادة عليه في أصله ونعته وأي شيءٍ ،واتمام هو ما لا يقبل الزيادة في نفسه،ويقبلها في نعته.

يقُول أبو هلالِ العسكري(ت: ٣٩٥هـ) في" الفروق اللغوية):« الفرق بين الاتمام والاكمال(٤): قد فرق بينهما بأن الاتمام: لازالة نقصان الاصل.والاكمال: لازالة نقصان العوارض بعد تمام الاصل. قيل: ولذا كان قوله تعالى: " تلك عشرة كاملة "(٥) أحسن من (تامة). فإن التام من العدد قد علم، وإنما نفي احتمال نقص في صفاتها

فهذه السبعة ألأيام التي سيصومها الحاج في أهله لا تفضلها الثلاثة الأيام في الحرم، فالصائم في كل نازلٌ على حكم اللهﷻ وذالك هم وماط الفضيلة . فعلى قدر أسلامك الوجه في الله في عملك يمونُ أجرك، لا على مقدار عملك،ونعته ،ومكانه ووقته. وفي هذا من تحرير العبد من التعلق بغير الله تعالى(مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)(البقرة:١١٢) (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)(النساء:١٢٥) (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (لقمان:٢٢)

»قوله" كاملة" وإن كان نعتًا تابعًا من حيصُ الإعراب النحوي، فإنه من حيث اقتضاء السياقِ والقصد أصيلٌ ، لا يستغنى عنه، فما هو بمزيد في النطقِ ، بل هو زائد في المعنى ما لاسيتغنى عنه فكلمة" كاملة" مكنت في الفؤاد الرشيد أن صِيام الحاج "السبعة" الأيام في أهله هي في كمالها في ذاتها ،وفي مثوبتها عديل صيامه الثلاثة التي فيأيام الحج ، ذلك أن الاعتداد في المثوبةِ ليس بالمكان ، بل بطاعة الأمرﷻ ذلك أن عمود الأمر في هذا الذين "الإسلام" الذي ارتضاه لنا ربنا ﷻ إنما هو إسلام الوجه لله تعالى ،واستقبال أمره ونهيه بفؤادٍ قانت يبصر ربانيته في كل ما يأتيه أمر الله ونهيه وقدره، فمن أطاع أمر ربه وتعالى نهيه مسلمًا الأمر كله لله تعالى موقنًا أن ما جاءه من ربه ﷻ إنما هو الخير له ، فيقبلُ عليه

أقبال المحب للأمر ومَن أمر به ﷻ فعليه أن يقولَ في يقينٍ :" سمعنا وأطعنا" وأن يُحيل الأمر والنهي المسموعَ إلى مشهودٍ ، ولا يتساءل عن المثوبةِ أو الحكمةِ ،ونحو ذلك ممّا شُغلَ الناسُ بِه عن إنفاذ أمر ألله ﷻ ونهيه.

بات عير قليلٍ من الناس إذا سمع أمرًا أو نهيا إلهيا أو نبويا لا يبادر إلى قوله سمعنا وأطعنا وإلى إحالته إلى واقع مشهود إلا من بعد أن يسألَ عن حكمته أو عن ما يكون له من المثوبة في الدنيا أوالآخرة . هو بهذا يقف من ربه ﷻ موقف عبد السوء من ربه ﷻ لايطيع إلا رهبةأورغبةً وما كذلك الأحباب :

الحبيبُ يتشوفُ إلى أن يأمره حبيبه وينهاه ، هو أكثرُ سعادةً إذا ما خطرَ على بالِ حبيبهِ ، فكيف إذا ما جرى اسمه على لسان حبيبهِ .

« لقد سرني أني قد خطرت ببالكا»

ولقد ذكرْتُكِ والرّماحُ نواهلٌ ** مني وبيْضُ الهِنْدِ تقْطرُ منْ دمي

أسِيئي بِنا أو أحْسِنِي لا مَلُومَة ** لدينا ولا مَقْلِيّةً إنْ تَقَلّتِ

تلك شرعة الأحبابِ ، فهل لنا أن نتعلم ثقافة الحب الأقدسِ لله تعالى وأن نعلمها من ابتلينا بالقوامةِ عليهم رعايةً وحمايةً من أبناء أصلابنا، وأبنائنا من أفئدتنا : "طلاب العلم" .

الذي لا يقبلون على إنفاذِ أمر الله تعالى ونهيه إلا من بعد أن يعلموا ثوابهم على تلك الطاعةِ هم أشبه بحال سحرة فرعون معه :

(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)[الأعراف]

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)[الشعراء]

ومن هذا الباب: الإجمال والتفصيل في معنى واحد ما تراه بين سورة "الإخلاص" (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) [الإخلاص]

وآية الكرسي:(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)[البقرة:٢٥٥]

أصل المعنى في سورة" الإخلاص" قوله ﷻ :«اللّهُ أحد» وما بعده من قبيل الاستدلال على، فهذه أربعة استدلالات على " الله أحد" : (اللَّهُ الصَّمَدُ) (لَمْ يَلِدْ)

. و(المحور الثالث) : اعتبار الإيجاز بما يقتضيه لا باعتبار عدد كلمه.

وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز. [36]

وَ(لَمْ يُولَدْ) وَ(لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) وأصل المعنى في آية الكرسي قوله ﷻ : (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ) وما بعد ذلك استدلال عليه : (الْحَيُّ)،(الْقَيُّومُ) (تَأْخُذُهُ سِنَةٌ نَوْمٌ) (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ) (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) وَ(لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ) (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) وَ (لا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)وَ(هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

وكلٌّ في سياقِه هو البليغُ المُعْجزُ .

[٣٦]) هذا الذي يختم به أبو الحسن كلامه في باب"الإيجاز" من أنفع ما جاء في هذا الباب عندي .

اتخاذ المقام عيارًا للمفاصلةِ بين مفهوم مصطلحيْ" الإيحاز " و" الإطناب" ليس مقدار الكلم هو عيارٌ قويمُ ، فكم من كليماتٍ هِي إلى "التطويل" أقربُ منها إلى "الإطناب" وكمْ من صفحاتٍ في أمرٍ هي إلى" الإيجاز" أقربُ منها إلى " الإطناب" ، وهذا يُقيمُ البلاغيّ في مقامِ المراقبةِ لاستحقاقاتِ المقامِ واقتضاءات " الحال" وهذا هو الّذي يفارقُ العقل البلاغيّ كثرة من العقول .

المقام والحال، واقتضاءاتُ الحال هي التي لها الكلمةُ الفصلُ ، وهي الّتِي الإيفاء باستحقاقاتها الفريضة التي إذا صلحتْ صلح سائرُ الأمر.

ولا تحسِبنَّ رعاية المقام والحالِ والمقصدِ والمغزَى أمرًا يسيرًا . إنه لحِمْلٌ ثَقِيلٌ ، وبِحُسْنِ استبْصاره يتبيّن للعقلِ البلاغيّ ما فِي البيانِ ، ولا سيما بيان الوحي من الجلالِ والجمالِ.

وهذا يفسّر لك الحكمةَ في تفاوتِ السور القرآنية في البسطةِ ، ويفسر لك الحكمة – ايضًا – في تفاوتِ "القصة القرآنية" الواحدة المصرفة في سور عدّة في التفصيلِ والإجمالِ .

أرأيت إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام في ثلاثِ سور متتاليات ترتيلًا وتنزيلًا: «الشعراء، والنّمل، والقصص» وكان ترتيب أحداث قصة سيدنا موسى عليه السلام على عكس ترتيب السور ترتيلًا وتنزيلًا : جاء أول القصة في سورة«القصص» ووسطها فسي سورة«النمل» وآخرها في سورة«الشعراء» بعكس القول في قصة سيدنا موسى عليه السلام في هذه السور الثلاث، بينا نجدها موجزة في سور أخرى لاتعدُو آيات قليلة كما في سورة «هود» :(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِين * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ* وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} [هود: ٩٦-٩٩]

وما ذلك إلا للاقتضاء المقام والمغزى ، فهي في السور الثلاث "إيجاز" نظرًا للمقام،و"إطناب" مناظرة لما في سورة«هود» وغيرها

وقولُ أبي الحسن إذا كان"الإطنابُ" لا منزلة إلّا ويحسن أكثر منها ، فالأطنابٌ حين إذن "إيجاز" ،كصفة ما يستحقه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – من الشكر على نعمه ، فالإطنابُ فيه "أيجاز" بالغ الإحكام ،فلو أنك وجمع معك يقيمُ عمرًا مديدًا لا يشاعلون إلا بتدبيح القول في ما يستحقه الله تعالى من الثناءِ لكان ذلك "أيجازًا"

ألا تصْغِي إلى ما رواه سيدنا مسلم - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ – في كتابِ الصلاة من صحيحه بسنده عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ - عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُا - قَالَتْ : فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ ، فَالْتَمَسْتُهُ ، فَوَقَعَتْ يَدِى عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ ، وَهُوَ فِى الْمَسْجِدِ ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ،لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ».

قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِهِ وَسَلَّمَ - :« لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ » آيةٌ بيّنةٌ على أن كلّ ما يقولُ في الثناءِ هلى اللهِ تعالى إنما هو "إيجازٌ" بالنسبة لما يستحقه الله تعالى ، وهو "إطنابٌ" بالنسبة لغيره.

وهذا الذي ختم به أبو الحسن كلامه في هذا البابِ هو الذي قاله الجاحظ(١٥٠-٢٥٥هـ) في كتابِ" الحيوان" :«والإيجازُ ليس يعني قلة عدد الحروفِ واللفظِ ،وقد يكونُ البابُ من الكلامِ من أتى عليه فيما يسعُ بطن طومارٍ فقد أوجز »

وهذا من الجاحظ يجعل كل كلام بليغ مهما امتد سياقه المقاله هو " إيجازٌ" بالنسبة لموضوعه ومقامه، وهو قد يكونُ إيجازًا بالنسبة لغيره من القول في المقامِ نفسه،وقد يكونُ إطناب بالنسبة لكلام آخر في المقام نفسه ، ومعنى هذا أن أنا أن نصنف الأسلوب باعتبار ما يستحقه الكلام من الإبانه ، وباعتبار نظيره من البيانم في الكقام نفسه،

فيتفير الحكم عليه بالإيجاز أو الإطنابِ بالنسبةِ للمعيار الذي ينظر إليه.
وعلى هذا تكون في وصف الكلام بالإيجاز أو الإطناب أمام اتجاهات عدة

- اتجاه يقيس المنطوق على أصل المعنى
- واتجاه يقين المنطوق على معنى المعنى
- واتجاه يقيس المنطوق على مستتبعات التراكيب

- واتجاه يقيس المنطوق في المقام على منطوق أخر في المام نفسه
- واتجاه يقيس المنطوق على ما يقتضيه المقام

فإذا حكمت على أسلوب يأنه "إيحاز" أو" إطناب" وجب عليك أن تبين : أهو كذلك بالنسبة لماذا، وإلا كان حكمك غير محكم ، فيرد عليك.
(جُمُعةُ القول) ما جاء به الجاحظُ في أسفاره في " الإيجاز" هو أم مقالات أهل العلم بعده . ومدرسة" البيان والتبيين" هو الأم لما جاء من بعد في أسفار البلاغيين ،وهي المدرسة الجامعة بين البيان البليغ الذي ينشئه الأديب أو المبين البليغ [البلاغة الإفهامية]، و"التَّبيين" العلمي الحكيم [البلاغة الفهميّة]الكاشف عمّا في البيان [البلاغة الإفهامية] تصريحًا أوتلويحًا
ولو كنتُ... لجعلت مدارسة كتاب البيان والتبيين بأجزائه الأربعة كلّ جزء في عام جامعيّ هو العمدة في درس البلاغة في المرحلة الجامعية الأولى [الأجازة العالية: الليسانس] في جامعة الأزهر الشريفِ(فسطاط الخير) وتبقى مدارسة متابي عبد القاهر ، وأسفار مدرسة " المفتاح" في المرحلتين التاليتين: التخصص/ الماجستير" و" العالمية / الدكتوراة "
من لم يؤسَّس على كتابِ " البيان والتبيين" لا يكون فقهُه لما في كتابي عبد القاهر وأسفار مدرسة المفتاح فقها متغورًا حكيمًا محيطًا. لو كنت...لفعلتُ ،ولكن قومي لايرغبون.
والحمد لله رب العالمين
وكتبه
محمود توفيق محمّد سعد القاضي
القاهرة- مدينة الشروق